مهرجان القراءة للجميع / مكتبة الأسرة ٢٠٠٢
الأعمال الفكرية

المرأة المصرية بين التطور و التحرر

د. يونان لبيب رزق

الهيئة المصرية العامة للكتاب



المرأة المصرية بين التطور والتحرر

١٨٧٣ - ١٩٢٣

اسم العمل الفنى: فتاة

التقنية: الوان جواش على ورق

المقاس: ٢٥ × ٣٥ سم

جودة خليفة

فنان مصرى متميز، تقترب رسومه من فن النحت، حيث اهتمامه بالكتلة والفراغ بنفس القدر الذى يهتم فيه بالعلاقات اللونية (الانسجام والتضاد)، ولا يغفل النور والظل فى أعماله التى تتميز بالبساطة والوضوح. ورغم أن عناصر الفنان المستخدمة فى أعماله قليلة جدًا؛ إلا أنها شديدة الثراء والغنى، متنوعة الاستخدام. كلما استخدم عنصر مرة أصبح غير ذى قبل، وكأنه يغترف من بحر يمور بالأمواج، يخال للمشاهد فى كل مرة أن المياه ليست هى نفس المياه.. واهتم جودة خليفة برسم الصور الشخصية والرسوم الصحفية للمجلات والصحف، مجلة صباح الخير وروزاليوسف وجريدة العمال ومجلة أكتوبر والإذاعة والتليفزيون.

محمود الهندى

المرأة المصرية بين التطور والتحرر

١٨٧٣ - ١٩٢٣

د. يونان لبيب رزق

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

سلسلة الأعمال الفكرية

المرأة المصرية بين التطور والتحرر

١٨٧٣ - ١٩٢٣

د. يونان لبيب رزق

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنـان : محمـود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سـمير سرحـــان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً في المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلهف جماهيري على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر في العالم العربي أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافي أسماء رواد في مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص، ها هي تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالي في مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعي بعد أن حققت في العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التي أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام في «**مكتبة الأسرة**».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ **سوزان مبارك**..

د. سمير سرحان

تصدير للسيدة سوزان مبارك

يظل تفعيل دور المرأة فى الحياة العامة أحد الأهداف الرئيسية للمجلس القومى للمرأة، وهو التفعيل الذى تشارك فى صنعه مجموعة من المعطيات.

أحد تلك المعطيات البحث ى الجذور، والتأكيد على أنه وراء الحركة النسائية تاريخ طويل، فهى لم تأت من فراغ كما يتوهم البعض، الأمر الذى يقتضى إلقاء الضوء على جوانب مجهولة من هذا التاريخ التى تغير من النظرية القائلة أن حركة «تحرير المرأة» قد بدأت مع كتاب قاسم أمين الذى أصدره تحت هذا العنوان عام ١٨٩٩، وأن هذا التحرير تم على أيدى أحد الرجال.

النظرية الجديدة التى سعى هذا العمل لإثباتها أن عمل قاسم بك أمين قد جاء فى سياق تطورات عامة شاركت المرأة المصرية فى صنعها قبل ظهور «تحرير المرأة» بأكثر من ربع قرن، وعلى وجه التحديد مع البدء فى تعليم البنات عام ١٨٧٣ .

وتعتمد هذه النظرية ببساطة على فكرة تاريخية مفادها أن أية خطوة، خاصة فى تغيير عادات وأفكار شائعة، تأتى منبتة الصلة عما حواليها، لا يكون مكتوبا لها أن تستمر، وهو ما لم يحدث بالنسبة لدعوة المصلح الكبير الذى تبع خطاه كثيرات بدءاً من السيدة هدى شعراوى، ومروراً بسيزا نبراوى ونبوية موسى، ووصولاً إلى الشابة الصغيرة منيرة ثابت التى خاضت معارك

ضارية فى سبيل إثبات حقوق المرأة.

وانطلاقا من هذه النظرية جاء عنوان هذا العمل عن (تحرر) المرأة المصرية، وليس (تحريرها) وهو التوصيف الذى شاع حتى الآن عن الحركة النسائية المصرية، فالأول تصنعه المرأة نفسها، وهو ما نجح هذا الكتاب فى إثباته، أما الثانى فيصنعه لها الآخرون.

والأمل معقود أن تتبع هذه الدراسة الأولى دراسات أخرى لتؤكد هذه النظرية وتغير من الفكرة القائلة أن الرجل هو الذى حرر المرأة بكل ما يصحب هذا التغيير من ثقة الأجيال الجديدة أنهن قادرات على السير فى طريق «التحرر» الذى بدأت خطاه أمهات عظيمات.

سوزان مبارك



تحرر المرأة المصرية ..
إضاءة جديدة لحقيقة تاريخية !

مفارقات التاريخ لا تنتهى. ففى عام ١٨٧٣ كان رفاعة الطهطاوى يودع الحياة، بعد أن أصدر كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» بإيعاز من الخديوى إسماعيل، وجاء فصله الثالث تحت عنوان «تشريك البنات مع الصبيان فى التعليم والتعلم وكسب العرفان» وكان قد أصدر كتابه هذا، قبل وفاته بعام واحد، وقبل إنشاء أول مدرسة لتعليم البنات، وهى مدرسة السيوفية ، التى افتتحتها جشمت هانم زوجة الخديوى إسماعيل عام ١٨٧٣ .

ومنذ أن أصدر قاسم أمين كتابيه «تحرير المرأة» ١٨٩٩، و«المرأة الجديدة» ١٩٠١، ظل الاعتقاد الراسخ والسائد هو أن قاسم أمين هو الذى قام عبر كتابيه، بعملية رائدة فى تحرير المرأة من القيود، لكن هذا الكتاب «المرأة المصرية بين التطور والتحرر ١٨٧٣- ١٩٢٣» يعرض لنا الثورة الاجتماعية خلال نصف قرن، ما بين إنشاء أول مدرسة لتعليم البنات ١٨٧٣ إلى «المؤتمر النسائى الدولى» الذى عقد فى روما ١٩٢٣، والذى حضره وفد نسائى بقيادة هدى شعراوى ويضم نبوية موسى وسيزا نبراوى، يثبت لنا كذلك أن محاولة تحرر المرأة سبقت إصدار قاسم أمين لكتابيه الشهيرين وكانت قائمة ومستمرة ، خاصة بعد أن بدأ المصريون ينفضون عنهم غبار التخلف العثمانى، ويواصلون حضارتهم الفريدة، وكان للجاليات الأجنبية دور فى تنبيه المصريين إلى أهمية التعليم عامة، وتعليم البنات خاصة، وعندما عادت هدى شعراوى وسيزا نبراوى من «المؤتمر النسائى الدولى» فى روما، وكانت نبوية موسى قد سبقتهما فى الحضور لإعداد استقبال لائق لهما، كتب أحد قراء الأهرام عام ١٩٢٣ يقول : «يكفى الله مصر شر مرضى المكابرة ومرضى الجمود الفكرى وآفة كل إصلاح»، معبرا بذلك عما يعتمل فى نفوس المصريين من رغبة فى التحرر على المستويين الاجتماعى

والسياسي، خاصة في قضية مشاركة المرأة المصرية في العمل العام ، وهذا لا يحدث إلا من خلال تعليمها ومشاركتها في القضايا الاجتماعية الكبرى.

إذن فقد كانت مصر تتململ من طول الانكفاء على الذات تحت الحكم العثماني، وتحرص على ان تواصل ما انقطع من تاريخها ، فإذا نظرنا الى الوراء قليلا، سنجد أن النساء في مصر تسلمن مقاليد السلطة في فترات من أزهى عصورها الحضارية، ففي العصر القديم كانت هناك حتشبسوت ونفرتاري، والملكة تي أم إخناتون، وكليوباترا، وفي العصور اللاحقة كانت هناك الملكة شجرة الدر وغيرها من النساء، أما على مستوى تراثنا العربي والإسلامي فلدينا من النساء شاعرات ومحدثات وأديبات وفقيهات ، وهو ما لا يوجد في أي سياق ثقافي آخر، بدءا من الشاعرة الخنساء في العصرين الجاهلي والإسلامي، الى السيدة عائشة أم المؤمنين التي روت معظم الأحاديث النبوية وغيرها كثيرات مما يملأن الذاكرة من عصورنا الماضية.

ومع احتكاكنا بالغرب وثقافته، خاصة من خلال رفاعة الطهطاوي الذي سافر إلى باريس عام ١٨٢٥ ، بدأت المرأة المصرية تحرر ذاتها من قيود عصر «الحرملك» التركي، لتعيد وصل ما انقطع ، فكانت باحثة البادية، والأديبة مي زيادة، وهدى شعراوي وسيزا نبراوي، ونبوية موسى ، ومنيرة ثابت ، وسهير القلماوي وعائشة عبد الرحمن ، ولطيفة الزيات وأخريات في مجالات السينما والمسرح والفنون المختلفة التشكيلية والصحافة والجامعة وفقه القانون والرياضة وإلى آخر النشاطات السياسية والاجتماعية، وهذا ليس غريبا عن مصر وثقافتها الإنسانية.

ويكفي أن نستعيد ما كتبته «الأهرام» في افتتاحيتها في ١٥ أبريل ١٩١٩ تعبيرا عن هذه الثورة الاجتماعية لكي تتضح الصورة أمامنا، فقد كتبت تقول : «وحديث النساء النابغات يملأ التاريخ، في تاريخنا الطافح بذكرى العالمات والفقيهات والشاعرات، وربات المتاجر والأعمال السياسية وشئون الملك، ومنذ سكوته عن ذكرهن كان بدء الجمود والانحطاط» وهكذا فقد اتخذت «الأهرام» كعادتها الجانب المتحرر المنطلق ضد من كتبوا ردودا عنيفة على كتابي قاسم أمين، وهي نفسها التي كانت قد مهدت له قبل

إصدارهما عامي ١٨٩٩ و ١٩٠١، وبعد قرن كامل من هذه الثورة ينشر «مركز تاريخ الأهرام» هذا الكتاب «المرأة المصرية بين التطور والتحرر ١٨٧٣ - ١٩٢٣» ليسجل كفاح نصف قرن من تحرير المرأة ، في فترة كانت فيها المرأة تأخذ موقعها بنفسها إلى جانب الرجل من أجل تطور وتحرر المجتمع، وليكشف لنا أن قاسم أمين والدعوة الى تحرر المرأة كانا نتاج مناخ واع اجتماعيا ، بدأ منذ افتتاح مدرسة «السيوفية» على يد جشمت هانم، وبعدها انطلقت مدارس البنات التى أخرجت لنا جيل ثورة ١٩، بدءا من صفية هانم زغلول إلى هدى شعراوي وسيزا نبراوي، ونبوية موسى وغيرهن كثيرات أصبحن منارات إنسانية في تقدم المجتمع المصري، من خلال مشاركتهن في القضايا المحلية والإقليمية والدولية.

وهذا الكتاب يكشف جزءا من التاريخ المطمور في الحياة المصرية المعاصرة، ظل غائبا عن الدراسات والآراء السياسية والاجتماعية، وهو أن المرأة المصرية لم تتحرر بفضل كتابي قاسم أمين، وحدهما وإنما أيضا بفضل حركة المجتمع الطبيعية، كما يزاح فيه الستار للمرة الأولى عن أنه في عام ١٨٧٣ ، مع بداية إنشاء أول مدرسة للبنات على يد السيدة جشمت هانم، وإسهامات رفاعة الطهطاوي الفكرية، بدأت ثورة أخرى تجلت فيما بعد في كتابي قاسم أمين، من ثم فإن هذا الكتاب ، الذى أرخت فيه «الأهرام» لأهم الجوانب المصرية، إضاءة لحقيقة تاريخية غير شائعة، يثبت أن «الأهرام» كان يؤكد على تطور وتحديث المجتمع المصري، دون رهبة من الأصوات المتزمتة صاحبة الصوت الأعلى في كل زمان ومكان، إضافة إلى أن هذا الكتاب يعد لبنة أولى في إعادة اللوحة المصرية إلى مكانها من خلال وضع الصور في وضعها اللائق بها في حركة التحرر المصرية، وإذ يسهم «الأهرام» الآن في إصدار هذا الكتاب فإنه يكمل دورا بدأ منذ أكثر من مائة وخمسة وعشرين عاما في مواكبة التغيرات في مصر، وهو الدور الذى يقوم به «المجلس القومي للمرأة» بقيادة السيدة سوزان مبارك، التي تقوم بدور تحديثي هائل في مصر والمنطقة .

إبراهيم نافع

مقدمة

شهد عام ١٨٧٣ وضع أول لبنة فى تاريخ تطور المرأة المصرية عندما نجحت زوجة الخديوى إسماعيل، جشمت هانم أفندى، فى إنشاء أول مدرسة للبنات فى مصر هى المدرسة السيوفية، وبعد خمسين عاما بالضبط (١٩٢٣)، كانت قد جرت مياه كثيرة تحت الجسور، إذ نعثر على ما يفيد باشتراك ثلاث من قيادات العمل النسائى، هدى شعراوى وسيزا نبراوى ونبوية موسى، فى المؤتمر النسائى الدولى الذى انعقد فى روما.

وكان فوق تصور أكثر المتحمسين لقضية تحرير المرأة أن تحدث هذه النقلة الكبيرة خلال تلك الفترة الوجيزة .. من المرأة حبيسة نظام الحريم إلى المرأة التى تشارك فى مؤتمرات عالمية، فخمسون عاما ليست زمنا طويلا فى تاريخ الشعوب، الأمر الذى تطلب تفسيراً له من خلال دراسة علمية متأنية.

ولما كانت مثل هذه التحولات فى تاريخ الأمم تحدث نتيجة لتطورات اقتصادية واجتماعية وفكرية معقدة، فقد رأينا أن نقدم عرضاً لها شغل القسم الأول من الكتاب، لنخلص إلى نتيجة مفادها أن ما عرفه مطلع القرن العشرين من دعوة لتحرير المرأة لم يأت من فراغ، وأن قاسم أمين لم يكن بصرخة فى واد، لأنه لو كان قد حدث هذا لما لقيت دعوته آذاناً صاغية، هذا من ناحية، ولما انقسم المصريون بين مؤيد ومعارض لها من ناحية أخرى.

ولأن هذا العمل غير تقليدى فقد فضلنا أن نتابع تلك التطورات من بين صفحات «شاهد عصر» وليس من مجرد كتابات سابقة، مؤيدة كانت أو معارضة، وقد اخترنا جريدة الأهرام العريقة لتلعب دور هذا الشاهد، ولأكثر من سبب :

صحف، ربما كانت أكثر رواجا من الأهرام، غير أنها لم تعمر مثلها .. والشاهد فى مثل هذه الدراسة يتحتم أن يكون قد عاش كل الفترة التى نتناولها.

سبب آخر هو أن الأهرام بحرصها على تجنب الدخول فى المتاهات السياسية التى ولجتها الصحف الأخرى، خاصة الحزبية منها، والتى ضاقت صفحاتها بالتالى عن تناول القضايا الاجتماعية، قد انفردت بتخصيص مساحات واسعة لمثل تلك القضايا، الأمر الذى لم يكن متاحا لدى أى شاهد آخر.

غير أن مخاوف هذه الجريدة من الدخول فى المعارك السياسية بين سائر القوى المتصارعة على الساحة لم يمنعها من الاشتغال بالعمل الوطنى، هذا من ناحية، ومن خوض المعارك ذات الصلة بالقضايا الاجتماعية من ناحية أخرى، وكان رأيها فى هذا أن مثل تلك المعارك تتصل بمستقبل الوطن، أكثر مما تتعلق بحاضره شأن المعارك السياسية.

من هذا المنطلق ترتب على العناية برصد كل التطورات التى دخلت على أوضاع المرأة خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وربع القرن الذى تلاه، أن خاضت بعد ذلك معركة تحريرها، ليس فقط مساندة لكتابى قاسم أمين، وإنما الأهم من ذلك بعد رحيله عن عالمنا عام ١٩٠٨، مما دفعنا إلى تخصيص القسم الثانى لهذا الجانب الآخر من حركة المرأة المصرية إبان تلك الحقبة الهامة من تاريخها، ونرى أن هذا الكتاب ينفرد فى جانب منه أنه يقدم شهادة معاصر للفترة، وأنه فى جانب آخر قد زاوج بين ما دخل على أوضاع المرأة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية من تطورات وبين المطالبة بتحريرها من آثار عهود غابرة رزحت خلالها تحت إسار الحرملك !

د. يونان لبيب رزق



الآنسة انشراح الرافعى والآنسة عائشة فرغلى عند إبحارهما إلى تركيا ليتعلموا على نفقة الحكومة التركية فى معهد عصمت إينونو. ويُرى فى توديعها السيدة هدى هانم شعراوى والآنسة سيزا نبراوى.

« تصوير عبداللطيف »
من ارشيف الاهـرام

أول برقع ارتفع عن وجه المصرية

لزعيمة النهضة النسائية السيدة هدى شعراوى

فى ١٦ مارس الحالى يكون قد مضى عشرون سنة على تأليف الاتحاد النسائى المصرى بزعامة السيدة الجليلة هدى شعراوى . وقد رأينا أن نتحدث مع زعيمة الاتحاد بهذه المناسبة عن الفكرة الأولى فى تأليفه ، وكيف ألفته ، والظروف التى ساعدت على نجاحها فى ذلك ، فأفضت الينا بما يلى :

فى سنه ١٨٠٩ زارت مصر آنسة نابغة من فتيات أوربا تدعى « مدموازيل كليمان » اشتهرت بعنايتها بالشؤون الاجتماعية ، وعلى الأخص الشؤون المتعلقة بالنهضة النسائية ، فدعوتها إلى مأدبة فى منزلى ، وبعد العشاء حضرنا معاً حفلة تمثيلية فى دار الأوبرا الملكية. فتحدثت معها أثناء وجودنا فى الأوبرا عن رغبتى فى أن تلقى محاضرة عن المرأة الأجنبية ونهضتها ، وأن تعقد مقارنة بينها وبين المرأة المصرية . وكنا إلى ذلك الحين لم نر سيدة أو آنسة تلقى محاضرة فى مجتمع عام . فأجابتنى : « إننى أرحب بهذه الدعوة . ولكن يحسن أن تكون هذه الحفلة تحت رعاية سيدة كبيرة ، لأنك ما زلت فتاة »

وخرجناء أثناء الاستراحة ، فالتقينا فى الممر بحضرة صاحبة السمو الأميرة عين الحياة ، فقدمتها إلى سموها ، وعرضت عليها أن تكون الحفلة تحت رعايتها ، فوافقت . واتصلت بأدارة الجامعة المصرية القديمة ، وكان رئيسها وقتئذ حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد ، فوافقت على ذلك. وفى يوم إلقاء هذه المحاضرة هرع اليها كثير من الرجال والنساء ، وتفضلت الاميرة عين الحياة، فحضرت واستمعت للمحاضرة وقد نجحت الحفلة نجاحاً كبيراً شجع إدارة الجامعة على تخصيص قاعة للمحاضرات التى تلقيها السيدات المصريات والأجنبيات .



هدى هانم فى التاسعة عشرة من عمرها

ومنهن باحثة البادية ، والآنسة مى ورحمه صروف ، ولبيبة هاشم

ومنذ ذلك الحين فكرت فى تأليف جمعية نسائية . وقد استطعت أن أؤلف جمعية سميتها « جمعية الرقى الأدبى للسيدات » ووضعت برنامجها وبدأت العمل ، ولكن قيام الحرب الكبرى الماضية حال دون المضى فيها ، فانحلت أو كادت تنحل ، ثم أعقب الحرب الكبرى ثورة مصر الوطنية سنة ١٩١٩ فانصرفت المرأة المصرية الى العناية بها والعمل لها

القسم الأول
التطـــــور

الفصل الأول

بدايات تعليم البنات

«بلغنى أن المدرسة التى أنشأتها حضرة الست عفيفة شالهوب فى شارع الفجالة قد نجحت جدا وكثر عدد التلميذات فيها وأن الأهلين راضون عن نظامها واعتناء رئيستها، فهذا مما نعهده بحضرة هذه الخاتون (السيدة) الجليلة من الدراية والمعرفة يدفعنا إلى أن نحث سكان مصر على إرسال بناتهم إلى هذه المدرسة التامة الإتقان».

جاء الخبر السابق فى الأهرام الصادر يوم ١٢ أبريل عام ١٨٨٧، تبعه فى ٩ يوليو من نفس العام خبر آخر كان مما جاء فيه:

«ذكرنا فى سالف رسائلنا عن المدرسة التى أنشأتها حضرة الفاضلة الخاتون نايلة جاماتى بقصد تهذيب الشابات والفتيات فى ملك الخواجا خليل زهار أول شارع الفجالة، ويسرنا الآن العودة إلى الكلام عن هذه المدرسة فإنها فى زمن قريب نالت من النجاح ما يوطد الآمال بأن ستأتى إلى الكمال بهمة حضرة المؤسسة ومعاوناتها» !

تبع هذين الخبرين عن همة الخاتون شلهوب والخاتون جاماتى خبر آخر من الفيوم لخاتون فاضلة أخرى هى «مريم غبريال» نشره الأهرام فى ٦ يوليو عام ١٨٠٩، وكان طويلا نوعا عن سابقيه .. جاء فيه:

«إن تهذيب البنات أعظم ما تحتاج إليه الهيئة الاجتماعية وأحق ما يلزم تعميمه فى عموم البلاد والمدن المدنية .. وإن تعليم هذا الجنس اللطيف وتهذيب أخلاقه صار أمرا أشهر من أن يعرف .. فإن تعليم البنات أمر يتوقف عليه نجاح البلاد لأن عليهن تدبير المنازل وتربية أبناء يكونون فخرا للبلاد، ولما كانت مدينة الفيوم مفتقرة إلى مثل هذا المشروع ومتشوقة إليه منذ زمن طويل، فقد سعت حضرة الخاتون الفاضلة مريم غبريال بافتتاح

مدرسة لتعليم هذا الجنس ما يلزم حالتهم من القراءة والكتابة والأشغال اليدوية ويسرنا إقبال أكثر الذوات إليها ورضاهم من حسن التعليم حتى بلغ عدد تلميذاتها خمسين تلميذة».

ولم يقتصر نشاط «الخواتين الفاضلات» على تأسيس مدارس البنات، بل تعداه إلى طرق كافة الأبواب لتشجيع هذا النوع الوليد من التعليم، فيما يشير إليه هذا الخبر من الإسكندرية عن تأليف «لجنة من الخواتين الفاضلات لإحياء ليلة فى تياترو زيزينيا يخصص دخلها لإعانة المدارس المجانية بإدارة الراهبات الفرنسيسكانيات».

ولعل هذه الأخبار العديدة التى قدمنا هنا عينة منها عن النشاط الذى أخذت تمارسه تلك الجمهرة من «حضرات الخواتين الفاضلات» إنما يفتح ملفا ظلت المصادر المعاصرة تضع فيه وراقها، ورقة ورقة، حتى أصبح جاهزا للعرض .. ملف مولد التعليم الأهلى للبنات فى مصر.

* * *

عصر «الحرملك» الذى استمر سائدا فى زمن «العثمنلى» صنع مجموعة من السمات النفسية والاجتماعية كان أقلها سيادة النظرة الدونية للمرأة، وأنها حبيسة لهذا الحرملك، فلا تخرج منه إلا مرتين، إحداهما إلى بيت الزوج، والأخرى إلى القبر !

ومع انتشار هذه القيم يصعب تصور وجود شكل من تعليم البنات مهما بلغ كنهه، فقد كان الأمر يتطلب وقتا يتآكل خلاله العصر العثمانى بكل قيمه ليحل محله عصر جديد، الأمر الذى استغرق نحو ثلاثة أرباع القرن، بين قدوم الحملة الفرنسية (١٧٩٨) ونشوء أول مدرسة للبنات فى المحروسة (١٨٧٣)، هى المدرسة التى عرفت أولا باسم السيوفية ثم تغير مسماها بعد

ذلك إلى السنية.

خلال تلك الفترة كانت قد ظهرت روافد عديدة تصب فى نهر الحياة للمرأة المصرية لتغير مجراه..

رافد أول، نشأ عن ظاهرة التحديث التى أخذت تتغلغل فى الحياة الاجتماعية لطبقة الأرستقراطية الزراعية الوليدة بعد أن استقرت أسباب ملكية الأراضى، وكان من أسموا بلغة العصر «الأعيان أو الذوات» أول من أخذوا بأسباب التحديث، فى السكنى واللباس والغذاء والعادات، ولم يكن من المتوقع أن يبقى «حريمهم» بعيدين عن يد التحديث التى طالت كل ركن فى حياتهم.

الرافد الثانى، نشأ عما يحدث عادة عند التحول من نسق الاقتصاد الإقطاعى، وهو النسق الذى كان سائدا فى عصر العثمنلى، إلى نسق الاقتصاد الرأسمالى، والذى أخذ فى التسيد إبان ثلاثة أرباع القرن حالة من «الحراك الاجتماعى» إذ يركد هذا الحراك عادة فى ظل النسق الأول بينما ينشط فى أحضان النسق الثانى !

تأسيساً على ذلك، فإن تلك الطبقة الدنيا التى ظلت راضية لوضعها قبل بناء الدولة الحديثة، تطلعت إلى تغيير هذا الوضع مع بناء تلك الدولة، وكان التعليم الحديث واسطتها لهذا التغيير، والذى بدأ بالفتيان ثم لحق بشقيقاتهم !

الرافد الثالث، صنعه الوجود الأجنبى فى مصر، فإن هذا الوجود الذى بدأ محدودا فى عهد سعيد (١٨٥٤-١٨٦٣)، وتعاظم فى عصر خلفه إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩)، استفحل فى ظل الاحتلال البريطانى، فقد أتى معه بنظام الحياة الذى كان يعيشه فى أوطانه بكل مفرداته، بما فيها تعليم

البنات، الذى لم يجد عدد من المصريين بأسا من أن يدفعوا كريماتهم إليه، ولم يجد آخرون ضيرا من أن يقلدوه.

أخيرا، فإن ظهور الصحافة وما أدته من دور فى فتح نوافذ المجتمع على العالم المتقدم قد طرح قضية تعليم البنات بإلحاح، الأمر الذى فرض نفسه على صفحات الأهرام، كما فرض نفسه أيضا على صفحات الجرائد الأخرى، وإن لم يكن بنفس الدرجة ..

ففى مناسبات عديدة نشرت الأهرام مقالات طويلة عن «تعليم النساء» نختار منه اثنين من تلك التى عرفت طريقها لصفحة الجريدة الأولى فى مطلع التسعينات لما لها من دلالة على الأفكار التى ظلت تروج لها فى هذا الميدان.

مرات قليلة جدا شغل مقال بعينه أغلب الجريدة كان منها المقال الذى احتل كل الصفحة الأولى وأغلب الصفحة الثانية فى العدد رقم ٤٤٠٥ الصادر يوم الاثنين ٢٩ أغسطس عام ١٨٩٢، مع ملاحظة أن الصحيفة كانت تتكون وقتذاك من أربع صفحات تخصص الأخيرة منها للإعلانات (!)، وكان تحت عنوان «تعليم النساء».

المقال فى أصله «رسالة من فاضل عالم شرقى سكن فرنسا وإنكلترا نحو ٣٠ سنة فكان من مشاهير العلماء فى اللغة العربية»، وإن كان الأهرام لم يذكر إسم هذا العالم، مما قد يدفع إلى الظن أنه من وضع أحد محررى الجريدة التى أرادت أن تضفى على مقالها أهمية بهذا التقديم !

بعد أن يقرر صاحب المقال فى مستهله أن «النساء لسن أدنى منزلة من الرجال فى شىء اللهم إلا القوة الحيوانية (البدنية)» وأن «الطبيعة قد سنت أن تكون المرأة شريكة الرجل فى قيام النوع» ينتقد الفكرة السائدة عند

بعض الجهلاء، أن تعليم النساء مضر، وينبغى منعه وفيهم من يباهى بجهل بناته ويفتخر بأنهن لا يدرين شيئا من أحوال الدنيا» !

يطالب «العالم الفاضل» بعد ذلك بتعليم البنات القراءة والكتابة، فضلا عن عدد من العلوم التى حددها ..

(التاريخ) لأنها لو عرفت شيئا من حوادثه «تقصه على أولادها وتجمع لهم فيه بين اللهو والتعليم فيغنيها ذلك عن أن تقص عليهم أساطير الجن والغيلان أو لصوص البادية وقطاع الطرق» !

(أصول الحساب) وذلك حتى تقوم بمساعدة «بعلها فى أعماله إذا مست الحاجة، وتنوب عنه إذا غاب أو مرض وتقوم مقامه إذا اختطفته يد المنون» !

(حفظ الصحة) وهو العلم الذى يكفل للمرأة «ألا تطعم أولادها ما يضر ولا تلبسهم ما يؤذيهم»، ولا بأس بعد ذلك من الإلمام بشىء من علم الجغرافيا «فإنها تعرف منه على الأقل موقع بلدها من الأرض وإن سافر زوجها أو أبوها أو أحد أقاربها إلى بلد من البلاد فتعرف إلى أين توجه» !

يضع بعد ذلك قائمة طويلة بالأضرار التى تلحق بالأسرة والمجتمع من جهل المرأة لينهى مقاله بتحذير قوى بأنه بدون تعليم النساء «لا يقوم الصالح العام ولا يتم للاجتماع الإنسانى حسن النظام» !

المقال الثانى، كان على شكل رسالة أيضا، ولكن من مكاتب الأهرام فى مدينة طنطا هذه المرة، وكان الرجل محددا للفوائد التى ستعود على المجتمع «إذا ما تهذبت الفتاة وتلقت العلوم والمعارف»، وقد أوجزها فى أربع فوائد....

أن تدرك ما لها وما عليها من المواجب الدينية والدنيوية، أنها بعد

زواجها «تقدر المعيشة الزوجية فتحفظ مقام زوجها»، بعد ذلك «تأخذ فى بيتها بوسائل الاقتصاد الحقيقية الخالية من الإجحاف والتقييد على المعيشة»، وأخيرا «تتولد فيها حاسات الشفقة والحنو فتلاحظ بنيها وتربيهم على أحسن تربية جسدية وعقلية» !

وإذا كانت هذه المقالات تدل على شيء فهى تدل على أن تعليم البنات أصبح مطلبا عاما منذ أوائل التسعينات، الأمر الذى يتطلب البحث فى تطوراته خلال العشرين سنة الأولى بعد ولادته.

* * *

«تشريك البنات مع الصبيان فى التعليم والتعلم وكسب العرفان» كان عنوان الفصل الثالث من كتاب رفاعة رافع الطهطاوى الصادر فى ديسمبر عام ١٨٧٢ تحت عنوان «المرشد الأمين للبنات والبنين» والذى لم ينقض على ظهوره أكثر من أشهر قليلة حتى تم افتتاح أول مدرسة للبنات فى مصر، وهى مدرسة السيوفية.

وبينما يعزو الكثيرون الفضل فى بناء هذه المدرسة إلى على مبارك باشا، فإن آخرين يعزونه إلى «جشم آفت هانم» الزوجة الثالثة للخديوى إسماعيل، بينما نراها إفرازا لتطورات تاريخية طويلة كان الوقت قد حان للتعبير عنها، وجاء دور «حرم أفنديا» أو «سعادتلو ناظر المعارف العمومية» ليترجم هذه التطورات إلى واقع.

المهم أن آفت هانم ابتاعت سراى قديمة فى حى السيوفية لتصبح أول مدرسة للبنات، ووجهت الدعوة إلى الأمهات ليرسلن بناتهن إلى المدرسة لينلن التعليم والطعام والملبس دون دفع أية نفقات، ورغم إغراء الدعوة، فقد استغرق الأمر نحو ثلاثة أشهر حتى تقبل الفتيات على المدرسة الجديدة.

كانت مدة الدراسة فى السيوفية خمس سنوات تتعلم خلالها الطالبة، فضلا عن اللغتين العربية والتركية، الحقائق البارزة فى تاريخ وجغرافية مصر، القواعد الأربع للحساب والموازين والمقاييس مع بعض المعلومات فى التاريخ الطبيعى والطبيعة، وقد أعير اهتمام خاص لدراسة الرسم النظرى وأشغال الإبرة «وعلى العموم كل المواد التى تكون نافعة للمرأة».

ومع أنه قد أضيف إلى السيوفية فى نفس العام مدرسة أخرى للبنات هى مدرسة القربية إلا أنها لم تعش طويلا، وضُمت تلميذاتها إلى مدرسة السيوفية بعد أن فُصل ناظرها، وكان السبب الأزمة المالية التى أمسكت بتلابيب الحكومة خلال السنوات الأخيرة من عصر إسماعيل، حتى أن مدرسة السيوفية نفسها أحيلت إدارتها إلى الأوقاف لتنال نصيبها من ريع المحسنين !

وعادت مدرسة البنات الحكومية الوحيدة عام ١٨٨٩ إلى عهدة نظارة المعارف، ولكن بعد أن انحسر دورها ليقتصر على إعداد البنات الفقيرات كمديرات بيوت أو خادمات أو عاملات، ولا شك أن هذا التحول قد أساء كثيرا للصورة العامة لمدرسة البنات اليتيمة، وهو ما حاول رجال المعارف العمومية تداركه، فيما سجلته الأهرام.

كشفت الجريدة فى جانب من كتاباتها عن السر فى تغيير إسم مدرسة السيوفية إلى المدرسة السنية، قالت فى عددها الصادر يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٨٨٩: «استبدل اسم مدرسة البنات السيوفية باسم المدرسة السنية، وقد وافقت نظارة المعارف الجليلة على ذلك بالنظر إلى ما تحققته من تقدم هذه المدرسة وزيادة موارد الآداب فيها».

بعد ذلك بأسبوعين نشرت الأهرام الخبر القائل بأن نظارة المعارف «قد

رفعت الست شمس جهان ناظرة مدرسة البنات والست أنا ستتمارية وكيلة المدرسة والست شزيرة الضابطة فيها لما قررته من إدخال ترتيبات جديدة فى المدرسة المذكورة» !

وكان الخبران بمثابة رسالة للآباء أن السيوفية لم تعد مدرسة لإعداد الخادمات، فيما كانت عليه خلال ما يزيد عن عقد، ولعل تغيير الإسم ورفت المسئولين كان يسعى من بين ما سعى له إلى محو ما اقترن بالسيوفية من وضاعة الهدف من تعليم البنات».

خبر آخر نشرته الأهرام فى ٢٠ أكتوبر عام ١٨٩٠ نراه على درجة كبيرة من الأهمية فيما يتعلق بتعليم البنات .. فقد كتب مراسل العاصمة يقول:

«لقد كُلفنا أن نسأل نظارة المعارف بلسان وجهاء العاصمة أن تقيم مدرسة ثانية لتعليم البنات غير المدرسة السنية فى جهة السيوفية بأجرة عادلة تؤخذ من كل بنت يرغب والدها إدخالها للمدرسة المذكورة»، ويسوق بعد ذلك أسباب الطلب فكانت «أولا: لأن المدرسة السيوفية بعيدة عن المركز المتوسط فى العاصمة، فيصعب على سكان سائر الجهات إرسال بناتهم إليها، وثانيا: لما أنها جامعة بين بنات الفقراء، اللواتى يتعلمن مجانا وبين بنات الموسرات اللاتى يدفعن أجرة معلومة، وبالنظر إلى عدم تساوى الآداب فى أفراد الفئتين يأنف بعض الوجهاء من اختلاط بناتهم بمعاشرة بنات الغير» !

وخلصت الأهرام من ذلك إلى القول «أنه لو أقامت نظارة المعارف مثل هذه المدرسة لمن يدفعون أجرة التعليم أقبل عليها الطالبات من جميع الجهات، أو من جميع المدارس الإفرنجية التى لا يتعلمن فيها لغة آبائهن ووطنهن العربية»، وقد وضعت الصحيفة بذلك يدها على السبب الذى أدى

إلى وجود «مدارس الخواتين الفاضلات» وقبلها المدارس الإفرنجية، سواء كانت مدارس الجاليات أو مدارس الإرساليات التبشيرية.

* * *

تشير إحصاءات مدارس البنات الأجنبية فى أواخر القرن الماضى أن العدد الأكبر منها كان للفرنسيين والأمريكيين والإيطاليين، وبينما زاد عدد المصريات فى المدارس الفرنسية والأمريكية كان قليلا بالنسبة للإيطالية بحكم ضخامة جاليتهم فى مصر والتى كان يحتل بناتها أغلب مقاعد تلك المدارس.

غير أن هذه الإحصاءات تشير أيضا إلى أنه بينما فاق عدد التلاميذ المصريين أقرانهم الأجانب فى مدارس الأولاد، فإن العكس استمر صحيحا فى مدارس البنات حتى عام ١٩١٢ حين فاق عدد المصريات لأول مرة عدد الأجنبيات.

وبعيدا عن الإحصاءات، فإن أخبار الأهرام تشير إلى أن تلك المدارس قد تغلغلت فى شتى أنحاء القطر المصرى..

من الإسكندرية أخبار عديدة .. «مدرسة الأخوات العازريات توزع أوراق الدعوة للاحتفال بتوزيع جوائزها السنوية تحت رعاية حضرة قنصل فرنسا»، والاحتفال بليلة «البالو التى يُخصص لإعانة المدارس الأجنبية بإدارة الراهبات الفرنسيسكات»، وفتح مدرسة البنات الأمريكية لأبوابها «لقبول الطلبة من البنات، فمن شاء من الوالدين إدخال بناته فى هذه المدرسة فليشرف محل المدرسة بقرب المحكمة القديمة فى حارة اليهود» !

من المنصورة «تجتمع لجنة من أعيان الإنكليز لإنشاء مدرسة للإناث باسم

بيت فيكتوريا تذكارا لعيد السنة الخمسين من ملك جلالة ملكة إنكلترا» !

من طنطا الاحتفال «بمدرستى الآباء الإفريقيين للأولاد والبنات بختام السنة المدرسية، فقُدمت الروايات العلمية والمحاورات الأدبية وكان للدور الذى مثلته الفتاة نظلة موسى إحدى تلميذات هذه المدرسة وقع عظيم لدى الحاضرين» !

ومن المنيا يقول مكاتب الجريدة: «قدمت الراهبة الورعة رئيسة شركة قلب يسوع ومعها راهبتان لا تقلان عنها اجتهادا فأنشأن مدرسة للبنات يعلمن فيها العربية والفرنساوية وأشغال اليد».

وفى خضم تلك النهضة فى تعليم البنات دخلت «الخواتين الفاضلات» ويلاحظ على جملة الأخبار التى جاءت عنهن جملة من الملاحظات:

* أن غالبيتهن كن إما من الشوام، كريستين قرداحى، عفيفة شلهوب، نايلة جاماتى، مدموازيل زكارى، وإما من الأقباط مثل مريم غبريال فى الفيوم، ويبدو أن هؤلاء كن قد سبقن فى الخروج من الحرملك !

* أن القليل كان يكفى هؤلاء الخواتين لفتح مدرسة، فالخاتون نايلة جاماتى كانت قد اتخذت فى بداية الأمر محلا فى «ملك الخواجا خليل زهار فى أول شارع الفجالة» لم تلبث أن انتقلت منه بعد أن زاد الإقبال عليها إلى محل آخر «على مقربة منه فى ملك سلحف بك وهو مستكمل شروط الصحة والراحة الضرورية يتخلله نور الشمس والهواء النقى»، والخاتون مريم غبريال أقامت مدرستها فى بيتها بالفيوم !

اختلفت برامج الدراسة تبعا لمعارف الخاتون، فبينما اقتصرت مريم غبريال على تعليم القراءة والكتابة، فقد كانت الفتيات فى مدرسة نايلة جاماتى يتعلمن فضلاً عن ذلك الفرنسية والموسيقى، بيد أن جميع الخواتين كن

حريصات على تعليم الأشغال اليدوية والأعمال المنزلية، وقد انسحب هذا الاختلاف أيضا على طبيعة النظام المدرسى، فقد سمحت إمكانات خواتين القاهرة أن يخصصن أماكن فى مدارسهن للداخلية، وكن بالطبع يتقاضين مصروفات أكبر، وهو ما لم تسمح به إمكانات خواتين الأقاليم !

ولعل هذه الاختلافات هى التى دعت عدداً من وجهاء طنطا فى أواخر مارس عام ١٨٩٠ إلى أن يقرروا «إيجاد مدرسة لتعليم البنات تكون أبوابها مفتوحة لجميع الطوائف تحت أجرة مناسبة وتكون محتوية على تعليم القراءة ثم شيئا من النحو والصرف والجغرافيا والحساب واللغتين الفرنسوية والإنكليزية والأشغال اليدوية».

ونرى أن وجهاء طنطا قد عبروا باجتماعهم هذا عن ظهور مرحلة جديدة فى تعليم البنات .. مرحلة التعليم الأهلى، فى مواجهة التعليم الأجنبى ومدارس «الخواتين الفاضلات» التى لم تصمد طويلا أمام التعليم الجديد.

الفصل الثانى

نشوء العمل الأهلى ودور المرأة

تحت عنوان «نصرة العفاف» كتبت الأهرام مقالها الافتتاحى فى عددها الصادر يوم الأربعاء أول أبريل عام ١٩٠٣ تتحدث فيه عن الجمعية التى أنشأها بهذا الإسم مجموعة من الفضلاء «لمساعدة البنات الفقيرات على الزواج» رحبت فيه بنشوء هذه الجمعية فى أكبر «مدينة شرقية كالقاهرة تسكنها جميع الطوائف وتتلاقى فى جنباتها وفود الأمم وهو كاف لبيان فائدتها ونشر منافعها وتمثيلها للناس أنموذجا حيا يقتدى به وينسج على منواله».

واختتمت هذا المقال الطويل بالإعراب عن يقينها أن الجمعيات الخيرية من هذا الطراز فى كل مكان وزمان تخفف من آلام الفقراء وتزيل من أحزانهم «والفقر ليس رذيلة ولا الغنى فضيلة والناس اخوة فى هذه الدنيا وأفضلهم أكبرهم مبرة وأعظمهم إحسانا وحنانا ورأفة».

أهم ما يكشف عنه هذا المقال انتشار الجمعيات الخيرية إلى الحد الذى وصلت معه إلى العناية بتزويج البنات الفقيرات نصرة للعفاف، الأمر الذى سبقه تاريخ طويل للعمل الأهلى بدأ منذ أواخر عصر إسماعيل وانتعش خلال بقية القرن وفى ظل الاحتلال وبلغ ذروته فى مطلع القرن العشرين، وكان وراء ذلك عديد من الأسباب . .

* نمو طبقة كبار ومتوسطى ملاك الأراضى الزراعية الذين كانوا عمادا للعمل الخيرى دفعهم إلى ذلك تراث حضارى نقلوه عن أسلافهم ممثلا فى نظام الأوقاف الذى ظل يشكل مددا أساسيا لتقديم الخدمات للمصريين بامتداد قرون العصور الوسطى بعد أن تخلت الحكومة عن وظيفتها فى هذا الميدان، ولم يكن لهؤلاء أن يتخلوا عن ذلك التقليد خاصة وكان وراؤه وازع دينى . .

دفعهم إليه أيضا ما يوفره إسهامهم فى هذا المجال من أسباب الوجاهة، خاصة بين أبناء هذه الطبقة المنحدرين من أصول مصرية، فقد ظل هؤلاء، على عكس أقرانهم من كبار الملاك المنحدرين من أصول تركية، فى حاجة إلى مثل تلك الوجاهة التى توفر لهم الاحترام فى مناطقهم، فضلا عن أسباب الاتصال بالجهات الحكومية.

* نمو طبقة الأفندية التى تفهمت طبيعة العمل الأهلى وأبدت قدرة ورغبة على الانخراط فى سلكه، خاصة فى المدن الكبرى، سواء فى القاهرة والإسكندرية أو عواصم المديريات، وهؤلاء، إن لم يساهموا بالمال على النحو الذى فعله أبناء الطبقة السابقة إلا أنهم ساهموا بالتنظيم وبالعمل، خاصة فى ميدان التعليم.

* كان انسحاب الحكومة على عهد الاحتلال من ميدان تقديم الخدمات التى طالما اعتادت على تقديمها منذ نشأة الدولة الحديثة فى عصر محمد على، خاصة فى مجال التعليم، من الأسباب التى دعت هؤلاء إلى التقدم لسد الفجوة التى صنعها هذا الانسحاب، خاصة مع ملاحظة ما جرى طوال القرن من تغير نظرة المصريين إلى التعليم المدنى . . من النفور فى بدايات عصر محمد على، إلى القبول فى نهاياته، بعد أن تبينوا ما جلبه هذا النوع من التعليم من مكانة اجتماعية، إلى إقبال فى عصر إسماعيل وما بعده.

* زيادة نشاطات الجمعيات التبشيرية سواء فى مجال الخدمات التعليمية أو الصحية والتى استظلت بالحماية التى وفرتها لها الامتيازات الأجنبية، كان فى طليعتها جمعيات التبشير الأمريكية والفرنسية والإيطالية، وليس من شك أن تلك الزيادة قد أدخلت الجزع على نفوس المصريين . . مسلمين كانوا أو أقباطا . .

الأوائل ارتأوا أن تلك الجمعيات التى تنشط بين فقراء المصريين إنما

تسعى فى النهاية إلى تنصيرهم، والآخرون كانوا أكثر جزعا فيما لاحظوه من أن الحذر الذى التزم به رجال تلك الجمعيات بالنسبة لتنصير المسلمين خوفا من ردود الفعل الشعبية قد تخلوا عنه بالنسبة للأقباط الأرثوذكس سعيا وراء دفعهم إلى اعتناق مذاهبها .. البروتستنتية أو الكاثوليكية، ولم يكن ثمة غرابة مع ذلك أن تنوه جمعية التوفيق القبطية بهذه الحقيقة عند نشأتها فيما جاء فى القول عن أسباب تلك النشأة بأن وراءها ما فطنت إليه الجمعية من الدور الخطير الذى تقوم به مدارس الطوائف الأجنبية فى ترغيب الأقباط واجتذاب أبنائهم إليها وأنه «إذا أطلنا الرقاد على مهاد الغفلة وتركنا أولادنا بأيدى العاملين على زوال وحدتنا كنا المساعدين على نكايتنا بأنفسنا» !

* وبعيدا عن الجمعيات التبشيرية فقد كان الوجود الأجنبى فى حد ذاته حافزا للمصريين على الدخول فى ميدان العمل الأهلى بحكم نشاط أبناء الجاليات، سواء من الشوام أو من الأوربيين فى هذا الميدان، فهؤلاء لم يتوقفوا عند بناء المدارس لأبناء طوائفهم بل تعدوه إلى إقامة الملاجئ والمستشفيات وغيرها من المؤسسات الخيرية، فضلا عن النوادى التى كثيرا ما جمعت بينهم وبين المصريين. مما انتشرت عدواه الحميدة بين فئات المصريين المشاهدين أو المخالطين.

* انعكست كل تلك الأسباب على ازدهار العمل الخيرى الأهلى فى أواخر القرن الماضى، خاصة بعد الاحتلال البريطانى للبلاد والذى فرض نفسه على أنهر الصحف التى تابعته باهتمام وتشجيع، وكان منها الأهرام، التى كانت تسوق الأخبار وتدبج المقالات وتتابع كل ما هو جديد فى هذا الميدان.

* * *

مع أن الأهرام خصصت مساحات لا بأس بها لأخبار الجمعيات الخيرية الأوربية إلا أن المساحة الأكبر من أخبار الجمعيات الأجنبية اختصت بها جمعيات الشوام .. الموارنة والروم ونبدأ أولا بأخبار الجمعيات الأولى..

فهذا خبر عن الجمعية الطليانية التى عزمت «على إنشاء معرض فى العاصمة من المصنوعات الطليانية فأرسلت رسائل إلى جميع المعامل والتجار الطليان تطلب منهم مساعدتها فى هذا المعرض الذى يخصص دخله للفقراء».

وهذا خبر آخر عن الليلة الشائقة التى أحيتها الجمعية الخيرية الفرنساوية فى الأوبرا الخديوية «تحت رعاية المسيو كوكردان ويرئاسة الموسيو بروا ومعلوم أن الليلة التى تحييها الجمعية الخيرية الفرنسوية فى كل عام هى بهجة الليالى وغرتها.. يقام بعدها مرقص فى فندق الجزيرة، وهذا المرقص يكون شائقا إذ جميع الحاضرين يكونون إما بأزياء قواد الجنود وإما بأزياء السفراء والمعتمدين السياسيين».

الأهم من ذلك تلك الأخبار التى ساقتها عن بعض المؤسسات الخيرية التى لم ينصرف اهتمام المصريين إليها بقدر ما انصرف اهتمام الأوربيين، وكانت أغلبها، فيما اهتم به الأهرام على الأقل، وليد عناية الجالية الفرنسية وتحت رعاية الراهبات ..

فى مقال طويل احتل أغلب الصفحة الأولى من عدد الأهرام الصادر يوم الأربعاء ١٣ يناير عام ١٩٠٤ وتحت عنوان «الملاجئ وأعمال البر فى عاصمة القطر» تناولت الجريدة ما أسمته الأعمال الخيرية التى تقوم بها قرينات معتمدى الدول كل عام، وعددت بعضا من تلك الأعمال ..

«ملجأ العجزة» كان فى طليعة هذه الأعمال، وهو ملجأ كانت تديره

الراهبات الناذرات «لخدمة الشيوخ العاجزين الذين لا يقدرون على الارتزاق بسبب ضعفهم وشيخوختهم ويوجد فيه الآن ٥١ شخصا من كل الأمم والنحل ينامون فى الملجأ ويأكلون ويشربون وتخدمهم الراهبات .. ومن عادة قرينات القناصل إقامة مأدبة لهؤلاء العجزة البائسين فى العام مرة يقمن فيه على خدمتهم».

«ملجأ اليتامى» وتنوه الأهرام فى مقالها هذا أنه لا يوجد فى كل القاهرة سوى ملجأ واحد لهؤلاء أنشأته راهبات الراعى الصالح عام ١٨٥٤ بعد أن لقى دعما من بعض أمراء الأسرة الحاكمة، وكانت نقلته الكبرى فى عصر إسماعيل الذى أعطى الراهبات «محلا فى شبرا لتربية اليتامى وساعده المحسنون من المصريين والأوربيين حتى بلغ عدد اليتامى الذين يربون فيه ٣٠٠ يتيم من كل ملة وجنس .. ويعلم اليتيم العلم والأعمال اليدوية ويوجد فرع لمن أراد الانسحاب من العالم والانزواء فى ذلك الملجأ».

«عيادة راهبات المحبة» اللاتى أنشأن مستشفى فى شارع عبد العزيز عالجوا فيه خلال عام نحو ٤٥٠٠ مريض منهم نحو ٣٥٠٠ مصرى «ولا يدخل مريض فيسأل عن شىء، بل يكفى أن يكون مريضا أو جريحا ليداوى مجانا، وقد تبرع ثلاثة من كبار الأطباء بمعالجة المرضى مجانا ويؤخذ من الإحصاء أن عدد مرضى العيون أكثر من سواه .. ولا يقبل المستشفى أجرة ومن أراد دفع شىء أرشدوه إلى أن يدفعه إعانة».

الطريف فى تلك العيادة أن راهباتها قد فتحن إلى جوارها ما أسمينه «المطبخ الاقتصادى وهو مطعم لتقديم المآكل المغذية للعيال الفقيرة وللفعلة الفقراء الذين ليس لهم عيال يعتنون بطعامهم»، ويسوق الخبر بعد ذلك قائمة الأطعمة التى تقدم فى هذا المطبخ فكان منها «الشوربا التى تبرع بها أحد التجار الطليان فى العاصمة وقطع اللحم مع الخضر الناشفة .. وللأكل

الحرية أن يأكل فى المحل أو يحمل أكله إلى منزله».

ويتأكد أن «المطبخ الاقتصادى» هذا كان فى خدمة الأوربيين من الإحصاء الذى ساقته الأهرام من أنه من بين ٨٦٦ مترددا خلال شهر جاء أغلبهم من الإيطاليين (٥٦٢) واليونانيين (١٢٣) والفرنسيين (١٠٩) بينما لم يتجاوز عدد المصريين الـ ٤٢ .

قضية تمويل هذه المؤسسات استمرت تشكل شاغلا من أهم شواغل الأجانب فى مصر فيما فصلته الأهرام فى مناسبات عديدة .. الأسواق الخيرية التى كانت تقام تحت رعاية قرينات القناصل العموميين، خاصة قنصل عموم فرنسا، وبينما كانت هذه الأسواق تقبل التبرعات المالية التى كثيرا ما كان مصدرها الشركات والبنوك الأجنبية العاملة فى مصر، فضلا عن أولئك الذين كانوا يفضلون التسمى بـ «محسن يكتم اسمه»، فإنها كانت تقبل فى ذات الوقت الأشياء العينية التى «تعطى بالسحب باليانصيب»، وتقدم إحدى قوائم هذه التبرعات العينية صورة طريفة لطبيعتها ..

مروحة صينية من الحرير المزركش، صورة للعائلة المقدسة مع إطار جميل، نمرة للسياحة فى سقارة فى يوم من أيام الجمع، أربع نمر كل واحدة ٥٠٠ سيجارة من أحد مصانع الدخان، نمرة صندوق كونياك ١٢ زجاجة ونمرة ٩٦ زجاجة بيرة صغيرة (!)، نمرة لعلبة دهان ألوان، نمرة لدبوس برنيطة (!)، نمرة لصينية نحاس مجزعة، ونمرة لعشرين كيس أسمنت، فضلا عن نمرة للنزهة بالعربة فى الأهرام من شركة الأومنيبوس !

أشهر الجمعيات الخيرية للشوام التى ظل الأهرام معنيا بمتابعة أخبارها الجمعية المارونية وجمعية الأروام الكاثوليك..

فيما يلاحظ بالنسبة للجمعية الأولى أنها آثرت أن يتم تمويلها عن الطريق الفني، الأمر الذي تؤكده مجموعة من الأخبار التي اتصلت بها .. خبر في ٩ مارس عام ١٨٩٥ أن الجمعية اتفقت مع «حضرة قرداحي أفندي على أن يقوم لها جوقة البارع بتمثيل رواية في الأوبرا الخديوية تجمع بها الإحسان لفقراء طائفتها.. وقد علمنا أن أوراق الألواج والكراسي قد بيع أكثرها» !، خبر آخر في ١٨ مايو ١٩٠١ عن حفلة السماع والطرب التي أقامتها الجمعية في تياترو حديقة الأزبكية حيث اجتمع كرام العيلات وسراة الوطنيين !

الجمعية الخيرية للروم الكاثوليك وقد أنبأت الأخبار التي كانت تأتي عناية المسئولين عنها بعمليات التمويل في الدرجة الأولى، فلم نكد نعثر على جمعية اشتهرت بإصدار أوراق اليانصيب كما فعلت جمعيتنا تلك .. يشهد بذلك أغلب الأخبار التي نشرت عنها .. إعلان بسحب أوراق اليانصيب التي أصدرتها الجمعية يوم ١٥ مارس عام ١٨٩٥ «بمركز الجمعية الكائن بمدرسة القديس جارجيوس بقنطرة الدكة»، خبر في سبتمبر عام ١٩٠٢ بأن النمرة الأولى في يانصيب الجمعية وقدرها ٤٠ جنيها فازت بها الآنسة بالسو من الإسكندرية (!)، تقرير الجمعية عن ذات العام بأن دخل الجمعية من اليانصيب بلغ ٥٦٦٢٠ قرشا.

كشف هذا التقرير أيضا عن بعض مظاهر نشاط الجمعية .. أطباء تبرعوا بمعالجة الفقراء مجانا، صيادلة تبرعوا بأدوية لفقراء الطائفة، المساهمة في أجر السفر لمن يريد منهم العودة إلى وطنهم، تعليم أبناء الفقراء، وأخيرا تزويج بناتهم.

فضلا عن هاتين الجمعيتين كان هناك عدد من الجمعيات الأصغر .. جمعية الأرمن الأرثوذكس التي نكتشفها من الخبر عن حفلها السنوي «في

قهوة الأرمن الشهيرة ضمن قهاوى القطاوى فى الأزبكية، فأهل البر يجدون فى تلك الليلة ما يسرهم ولذلك نرجو أن يكون إقبالهم كثيرا »(!)، الجمعية الخيرية السورية الأرثوذكسية التى كانت تحيى كل عام ليلة فى الأوبرا يشترك فيها جوق مشهور، ويحضرها «كثيرون من الأعيان والوجهاء وأهل البر والإحسان».

* * *

لم يكن المصريون بعيدين عن هذا الجو العام وأول ما يلاحظ فى هذا الشأن أنهم قد دخلوا ذلك الميدان مبكرا .. ففى أواخر عصر إسماعيل تشكلت أشهر الجمعيات المصرية .. الجمعية الخيرية الإسلامية، وكانت رسالتها ترمى إلى «تربية الناشئة وبث روح المعارف فيهم لترقية أفكارهم وتطهير أخلاقهم وبث الروح الوطنية فى نفوسهم»، وقد ارتبطت هذه الجمعية بأسماء عدد من الشخصيات التاريخية .. عبد الله نديم فى مراحلها المبكرة والإمام محمد عبده بعد ذلك.

ولعل هذا التقرير الذى نشرته الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢٠ مايو عام ١٩٠١ عن الجلسة العمومية للجمعية ينبئ بما كان لها من مكانة كما يكشف عن حجم النشاط الذى كانت تمارسه ..

تجديد انتخاب أعضاء مجلس الإدارة يكشف عن مكانة هؤلاء، كان منهم إبراهيم بك ممتاز، على بك فخرى، علوى بك، سعد بك زغلول وحسن بك عبد الرازق، وحل خيرى باشا محل راتب باشا الذى انتقل إلى رحمة الله، وهو المجلس الذى كان يرأسه «العالم الغيور الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية».

يؤكد هذا التقرير أن الجمعية ظلت تمارس نشاطها الأساسى فى ميدان

التعليم، فقد كان لها وقتئذ أربع مدارس ، فى القاهرة والإسكندرية وأسيوط وطنطا، عدد تلاميذها ٣١١ استخدمت الجمعية ١٥ من خريجيها «وقررت إعطاء كل واحد ٣٠ قرشا فى الشهر مساعدة لمدة سنة .. وقد جعلت الجمعية سنى الدراسة أربع سنوات وكانت ثلاثا» . وقد تناول التقرير دخول الجمعية والتى اتضح أنها تأتى من تبرعات الشخصيات الكبيرة المنتمية إليها واشتراكات سائر الأعضاء التى بلغت عن ذلك العام ٢١٥٥ جنيها .

غير أن الأهم من الاشتراكات والتبرعات كانت الأوقاف التى يوقفها الأغنياء على وجوه نشاط الجمعية فيما تضمنه تقرير العام التالى .. الست فاطمة أوقفت ١٧٩ فدانا والست بخيته من ناحية الضيعة ٢١ فدانا والست ميانه هانم ٦٠ فدانا وإسماعيل بك عاصم ١٥٢٣ فدانا .

وباستثناء التعليم كان نشاط الجمعية فى المجالات الاجتماعية فيما يبرزه التقرير محدودا ، فقد اقتصرت على تقديم المساعدات المالية إلى بعض الأسر الفقيرة ... ، ٢٧٠ جنيها مساعدة وقتية أنفقت على ٢٦٦ عيلة، فضلا عن مبالغ أعطيت لفقراء آخرين بلغت فى مجموعها ٤٥٥ جنيها .

غير أن الملاحظ أن الجمعية كانت تنهض فى الكوارث القومية لتمد يد المعونة، وهو ما افتقرت إليه الجمعيات الخيرية الأجنبية، ويقدم الحريق الهائل الذى أتى على أغلب مدينة ميت غمر نموذجا لذلك، فمع اللجنة العمومية المركزية لمساعدة منكوبى الحريق قامت الجمعية بجهد خاص لجمع التبرعات لهم مما كانت تعلنه بعد ذلك فى قوائم المتبرعين يلفت النظر منها تلك القائمة التى نشرتها الأهرام يوم ١٤ مايو عام ١٩٠٢ وكان لها دلالاتها التى تكشف عن مدى المكانة التى تمتعت بها ..

ضمت القائمة أغلب النظار . . ففضلا عن الرئيس مصطفى فهمى جاء فيها أسماء عبانى باشا ناظر الحربية وبطرس غالى ناظر الخارجية ومظلوم باشا ناظر المالية وحسين فخرى باشا ناظر المعارف، يلفت النظر أيضا أنه كان من بين أسمائها اللورد كرومر نفسه والمستر الدون غورست المستشار المالى للحكومة المصرية.. أما أعيان المصريين فقد امتلأت بهم القائمة ؛ أمين بك الشمسى، عبد السلام بك المويلحى، إدريس بك راغب، أحمد نجيب بك التاجر الجواهرجى، إبراهيم بك الهلباوى .

وقد تراوحت التبرعات المدفوعة بين عشرين جنيها كانت قيمة تبرع النظار إلى ٢٠٠ مليما تبرع بها محمود أفندى رجب المدرس بمدرسة الجمعية، ولم يبخل واضعو القائمة عليه بتسجيل اسمه ضمن الباشوات والبكوات !

يبقى أن الجمعية الخيرية الإسلامية قد جارت الجمعيات الأجنبية فى إقامة الحفلات الخيرية، وإن كان لها مذاق مختلف مما نتبينه من رقعة الدعوة التى أقامتها فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٠٢ والتى نشرتها الأهرام . . «البر وجرام: زينة بديعة فى جميع الحديقة- أشكال نارية - موسيقى عسكرية - مزمار وطبل بلدى - ألعاب بهلوانية - خيال الظل - أغان عربية للمطربين المشهورين يوسف المنيلاوى ومحمد أفندى السبع» !

فى الإسكندرية احتلت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية التى تأسست عام ١٨٩٨ مكان الصدارة والتى تميزت بإنشاء ملجأ «للأيتام واللقطاء» كان محل عناية بالغة من الأهرام . .

شرعت الجمعية فى إقامة هذا الملجأ عام ١٩٠٢ ووضعت لائحة له نشرتها صحيفتنا . . يضم كل من فقد أبويه أو أحدهما أو كان من عائلة فقيرة، المقبولون تتراوح أعمارهم بين خمس وأربع عشرة سنة «أما ما يعلمه

الملجأ فهو قرآن . ديانة . لغة عربية. لغة أجنبية. حساب. حساب تجارى. مبادئ الهندسة والجبر. جغرافيا. تاريخ. علم الاقتصاد، ومن الصنائع: النجارة. الحدادة. الخياطة. الطباخة. السباكة. السمكرة. التجليد. الطباعة والزراعة بفروعها».

فى يوم ٢١ أكتوبر عام ١٩٠٣ تم افتتاح الملجأ رسميا بعد أن تبرع له الخديوى بمبلغ ٢٨٠٠ جنيه مما جرى فى احتفال حضره عباس الثانى نفسه، وتصور جولة ولى النعم شكل المؤسسة الجديدة .. غرفتان للتدريس؛ أولاهما فصل عدد تلاميذه ستة والثانى يضم ٢٤ تلميذا ، فى الدور العلوى غرف النوم وفيها بهوان كبيران أحدهما فيه ١٢ سريرا وعلى يمين الصالة الداخلية غرفتان بكل واحدة ٤ أسرة وعلى اليسار غرفة أخرى بها مثل هذا العدد «وفرش السرير عبارة عن مرتبة عليها ملاءة نظيفة وغطاء مدفئ، ومخدة وبجانبه دولاب صغير ذو طبقتين .. وعليه قُلة مياه وكوب وشمعدان وفوق رأس كل تلميذ لوحة مكتوب عليها إسم الغلام وإسم أبيه وأمه والصناعة التى يتعلمها».

على نفس النسق قامت الجمعيات القبطية، وبينما كانت الجمعية الخيرية القبطية التى تأسست فى مطلع عام ١٨٨١ أولى تلك الجمعيات فإن جمعية التوفيق القبطية التى تأسست بعد عشر سنوات كان الأكثرها شهرة والتى تأسست بمبادرة مجموعة من الشباب اتخذوا مقرا لهم فى حجرة فى وجه البركة بمقر النادى المصرى الإنجليزى.

ولعل الاختلاف الأساسى بين الجمعية الخيرية وجمعية التوفيق أن الأخيرة فضلت أن تعمل بعيدا عن دار البطريركية مما أعطاها مذاقا مدنيا رغم طبيعتها الطائفية مما عرضها لهجوم مؤسسة الكنيسة ، ورغم أن أعضاء هذه الجمعية كانوا من الشباب إلا أنهم كانوا ينتمون إلى عائلات قبطية

معروفة ومن أصول اجتماعية متشابهة ربطت بينهم أهداف مشتركة.

الغرض من الجمعية كما جاء فى المادة الثانية من قانونها «معاونة الفقراء والأيتام وإنشاء مدارس لتربية البنين والبنات وتعليم الفنون والصنائع وإقامة المستشفيات لمعالجة الفقراء، وتأسيس النوادى الأدبية وغيرها مما يعود بالفائدة على أبناء الأمة القبطية عموما».

يلفت النظر المادة الرابعة من نفس القانون والتى جاء فيها أن الجمعية لا تتعرض للمسائل السياسية ولا للعقائد الدينية، بكل ما كان يعنيه ذلك من حرص القائمين على تأسيسها على إعطائها هذه المسحة المدنية، مما كان من أهم أسباب طول عمرها فى تقديرنا.

إلى جانب الجمعيات الخيرية ذات الطابع الدينى التى تألفت فى القاهرة والإسكندرية، فقد تأسست جمعيات أهلية فى الأقاليم وكانت فى الغالب ذات طابع ثقافى مما تحفل بأخبارها صفحات الأهرام..

جمعية الاتحاد الأخوى فى بندر المنيا والتى جاء ذكرها بمناسبة الحفل الذى أقامته «بتمثيل رواية أدبية ذات خمسة فصول تحت رعاية عزتلو وكيل المديرية»، جمعية العطف الخيرية التى تأسست «لإنشاء مدرسة لتعليم الأولاد رئيسها عزتلو إبراهيم بك حقى ونائبها حضرة السيد أفندى ضبائى مأمور المركز»، جمعية الاتحاد فى أسيوط التى احتفلت بفتح ناديها فى يوليو عام ١٩٠١، والملاحظ أن تلك الجمعيات قد أهملت الجانب الطائفى الذى اشتهرت به الجمعيات الكبيرة.

يدلل على ذلك أنه بينما رأس تلك الجمعية الأخيرة يوسف أفندى يعقوب فقد كان من بين أعضائها محمد أفندى نجيب سرى وإسكندر أفندى سعد إبراهيم اللذين ألقى كل منهما خطبة بالمناسبة.

يبقى من تلك الجمعيات «الجمعية الخيرية بطنطا» التى أخذت على عاتقها نوعا من الخدمة لم تعرف عن سائر الجمعيات المصرية مما ينم عنه قرارها الذى نشرته الأهرام فى ١٢ فبراير عام ١٨٩٥ بجلب لقاح الدفتريا ووجهت نداء لأهالى طنطا والمناطق المجاورة ممن يشعرون بإصابة فى الحلق أن يقصدوا «الأجزاخانة المصرية» بالمدينة لتلقى العلاج، مما كشف عن أن الجمعيات الأهلية المصرية قد طرقت كل ميدان، الأمر الذى شكل مرحلة مزدهرة من العمل الخيرى.

الفصل الثالث

جمعية رعاية الطفل

فى الساعة الخامسة والنصف من يوم الخميس ٢ يناير عام ١٩٠٨، وفى احتفال بسيط انعقد فى فندق من أكبر فنادق العاصمة المصرية، هو فندق الكونتننتال، أعلن رشدى باشا رئيس الوزراء المصرى خلال الحرب العالمية الأولى ومدير الأوقاف الخديوية وقتئذ، ولادة جمعية من أشهر الجمعيات التى اكتسبت شهرة فى تاريخ الجمعيات الأهلية المصرية، هى «جمعية رعاية الأطفال»، أو التى اختصرها فقراء النساء المصريات اللاتى استفدن منها بعدئذ إلى اسم «رعاية الطفل»، ولم تأت الولادة من فراغ، وإنما بعد فترة حمل قاربت الخمسة أشهر.

الحمل كان صيفيا، فقد طرحت فى صيف عام ١٩٠٧ قضية زيادة وفيات الأطفال على نحو مروع خلال شهور هذا الصيف حتى بلغت ثلاثة آلاف طفل شهريا فى بلد لم يكن قد تجاوز تعداده حتى ذلك الوقت الإثنى عشر مليون نسمة.

فتحت الأهرام الملف بمقال طويل فى عددها الصادر يوم ١٥ يوليو عام ١٩٠٧ تحت عنوان «كثرة الوفيات بين الأطفال» رصدت فيه زيادة تلك الوفيات خلال شهور الصيف وأن السبب الأول فى ذلك اشتداد الحر والثانى إهمال العناية والطرق الصحية، فضلا عن أسباب عديدة أخرى.

وتقول جريدتنا أن بلاداً أخرى عانت من تلك الظاهرة، ومنها فرنسا «إلى أن اكتشف أحد الأطباء الفرنساويين دواء يحقن به الأطفال فيشفون ولا يموت من المرضى إلا ٢ بالماية وهذا الدواء من ماء البحر وقد شاع استعماله فى كل مستشفيات فرنسا ونقلت مستشفيات إيطاليا هذه الطريقة فكان النجاح عظيما»، ونظن أن الأهرام كانت تقصد بذلك مرض الجفاف الذى لا زال حتى يومنا هذا ينتشر بين الأطفال فى الصيف.

بعد أسبوعين وفى يوم ٢٩ من نفس الشهر، وتحت عنوان «غذاء الطفل» تناقش صحيفتنا الزعم الذى ساد وقتئذ وهو أن وراء زيادة وفيات الأطفال الحصول على مياه الشرب من الآبار الارتوازية، وفندته من خلال التذكير بأن الزيادة لا تقتصر على القاهرة، بل تشمل الريف، حيث لا توجد مثل هذه الآبار، فضلا عن أن العاصمة وغيرها من بلاد القطر قد عرفت هذه الزيادة قبل أن تعرف تلك الآبار.

السبب فى رأى كاتب مقال «غذاء الطفل» هو جهل الأمهات معرفة تغذية أطفالهن، ويعرض فى هذه المناسبة لبعض العادات الغذائية الغريبة التى كانت سائدة وقتئذ بين النساء المصريات .. فى الريف ما أن يولد الطفل حتى تكون أولى وجباته «اللحسة»، وهى مزيج من السمن والعسل ولب الخبز «فما أثقل هذا الغذاء على معدة الطفل، وإذا نجا من هذه التجربة الأولى، ولا ينجو منها إلا الأطفال الشديدو البنية والخشنو المعدة، لا يلبث متى بلغ الشهر الخامس أو السادس أن يشارك والديه فى كل ما يأكلانه من لبن وسمن ولحوم مطبوخة بما يوقعه فى الأمراض ويجعل حياته فى خطر».

فى المدينة تختلف الأسباب والموت واحد (!)، ذلك أن نظام الرضاعة يكون فى العادة من أهم الأسباب التى تودى بحياة الوليد، فإذا ولد الطفل فى إحدى العائلات الميسورة تعمد الأم إلى تقديم وجبات للطفل من اللبن البقرى برضاعة، وهى لا تعرف أصول استخدامها إذ يجب أن تكون «غاية من النظافة والطهارة واللبن المعطى بها للطفل يجب أن يكون معقما» ويؤدى عدم توافر تلك الشروط إلى إصابة الأطفال بالنزلات المعوية والمعدية الشديدة الوطأة .

ويدلل كاتب المقال على صحة هذا القول بأن كثرة الوفيات بين الأطفال فى الصيف تعزى إلى سرعة فساد اللبن بسبب الحرارة، وهو ما ينطبق على

الخضراوات والفاكهة التى يتناولها، ويتبع ذلك بتقديم عدة نصائح للأمهات لو اتبعنها «لحصل نقص فى الوفيات واكتسب الطفل عافية وقوة لمقاومة الأمراض الأخرى».

ولأن بعض الأطباء ظل يروج لفكرة أن مياه الآبار الارتوازية وراء زيادة وفيات الأطفال اضطر الدكتور بنشنج مدير مصلحة الصحة العمومية أن ينشر تقريرا فى القسم الإفرنجى من الجريدة الرسمية Le Journal Officiel عاد فيه إلى ما كانت الأهرام قد فعلته بتفنيد هذا القول «وأن موت الأطفال فى بلاد الأرياف التى لا يوجد فيها آبار ارتوازية أكبر بكثير من عاصمة القطر».

ولأول مرة يشير قارئ للأهرام إسمه مصطفى أنور عن اقتراح تقدم به «النطاسى الوطنى الغيور الدكتور عبد العزيز أفندى نظمى والذى يقضى بتعميم المستشفيات ومحلات العيادة فى أنحاء القاهرة وبلاد الأرياف وتعيين رسل يرشدون الناس إلى الاعتناء بأولادهم وإرسالهم إلى المستشفيات حين يرون أعراض المرض تظهر على ولدهم».

ونتوقف هنا قليلا لنسجل ملاحظتين؛ أولاهما: متصلة بالدكتور عبدالعزيز أفندى نظمى، وهو طبيب عيون كانت عيادته تقع فى شارع عبد العزيز، ونستطيع القول من خلال متابعة دقيقة للأهرام ولصحف العصر خلال السنوات العشر الأولى من ذلك القرن، أنه كان من رواد العمل الأهلى فى البلاد، ففضلا عن الدور الأساسى الذى سوف نتبينه فى إقامة وتطوير جمعية رعاية الأطفال، فقد كان الرجل صاحب المبادرة فى إنشاء «نادى طلبة المدارس العليا ومتخرجيها»، الملاحظة الثانية: أنه كان مطلوبا حتى ترى الفكرة التى طرحها الدكتور نظمى النور أربعة أشهر كاملة لم يكل الرجل خلالها من الدعوة إلى فكرته، وحتى انعقد اجتماع الكونتننتال الشهير،

حيث استقبل المجتمعون الوليد الجديد.

ويمكن أن نرصد خلال تلك الأشهر الأربعة نشاط حركة الاكتتابات التى شارك فيها العديدون، وصلت جملة قوائمها إلى عشرة يلاحظ أن الأعيان وأصحاب الأعمال الحرة ومتوسطى الأفندية شكلوا النسبة الغالبة فيها نختار القائمة السادسة منها نموذجا لذلك .. عبد الكريم أفندى فهمى المحامى الشهير بطنطا ١٠٠٠ قرش وإسماعيل أفندى كامل من الأعيان بالقاهرة ٥٠٠ وحافظ بك المنشاوى من أعيان اشنواى ٣٠٠ وإسماعيل أفندى حافظ من الأعيان بالعباسية ٢٠٠ وعثمان أفندى صبرى مدير جريدة الإجيشيان ستاندارد ٢٠٠ وحرم حضرته (شقيقة مصطفى باشا كامل) ١٠٠ وإبراهيم بك فهمى مدير مدارس المساعى المشكورة ١٣٠ والحاج محمود عبد الله المقاول بشبرا ٢٠٠ ومحمد بك أبو حسين أباظه من الأعيان ٢٠٠ ..

وتعرب الأهرام عن سرورها من الإقبال على الاكتتاب وتعبر عن أملها عن قرب ظهور «أعمال هذه الجمعية المفيدة التى ستكون رحمة كبرى للأطفال البؤساء».

فى تلك الأثناء أيضا نجح الدكتور عبد العزيز نظمى فى إقناع «سعادة حسين رشدى باشا» مدير الأوقاف الخديوية بأن يكون رئيسا للجمعية، وهو ما رحب به الرجل، ونظن أن الاختيار من جانب نظمى أفندى كان مقصودا، فقد اعتقد أن وجود صاحب هذا المنصب الكبير على رأس الجمعية سوف يوفر لها دعما من الأوقاف، وقد حدث !

فى نفس الشهور بدا ما للفكرة من جاذبية حتى أن محافظ الإسكندرية وأعيانها قد هرعوا إلى تأسيس جمعية شبيهة أطلقوا عليه اسم «جمعية حماية الأطفال»، وقد تضمن قانونها أغلب ما تضمنه مشروع قانون جمعية رعاية الأطفال .. السعى بكافة الوسائط الممكنة فى تحسين الحالة الصحية

للأطفال إلى نهاية سن الإطعام من أبناء الطبقة غير المتعلمة وغير ذات اليسار من السكان، المساعدة والعلاج اللازمين لأبناء الفقراء، تحسين غذاء الأطفال ونظافتهم والقيام بمعالجتهم وتقديم الدواء لهم مجانا.

أخيرا وفى يوم ٦ ديسمبر عام ١٩٠٧ انعقد اجتماع تمهيدى للجمعية فى نادى المدارس العليا برئاسة حسين باشا رشدى الذى أوضح فى خطبته أهم أغراض الجمعية والتى ارتبطت باسمها بعدئذ أيما ارتباط .. قال الرجل أنه ارتأى أن تكون الجمعية التى تؤلف للعناية بالأم فى آخر الحمل والوضع ومدة النفاس وبالطفل فى زمن الرضاع «ولما كانت الأمهات لا يرين الذهاب إلى المستشفيات فهو يرى إحصائهن وإرسال الطبيبات لعيادتهن وتوزيع الإعانات عليهن».

ونتوقف عند هذا الجانب الأهم من نشاط الجمعية قليلا .. فالمعلوم أنه حتى قدوم الحملة الفرنسية كانت تتولى القابلات (الدايات) هذه المهمة، وكانت حرفة ينطبق عليها ما انطبق على سائر الحرف فى ذلك العصر .. عمل وراثى تكتسب خبرته القابلة عن أمها فى الغالب، وإن كنا نلاحظ أنه لم تكن هناك طائفة تضم سائر القابلات كما هو الحال فى الطوائف الأخرى، فمن بين أكثر من ثلاثمائة طائفة سجلها على مبارك فى «الخطط التوفيقية» لم نعثر على طائفة بإسم هؤلاء.

المعلوم أيضا أن سيدات الطبقات الوسطى والعليا كن تتمتعن بخدمة دايات خبيرات لهن طقوس فى عملية الولادة رواها لنا الرحالة الإنجليزى المشهور المستر إدوارد لين ..قال:«تُرسل الداية قبل يومين من موعد الولادة إلى منزل الأم التى تنتظر حادثا سعيدا كرسى لتجلس عليه أثناء وضعها مغطى بمنديل مطرز تلف بعض أزهار الحناء على جانبيه حيث تتمدد الأم أثناء الوضع»، وطالما أن الولادة غير متعسرة فغالبا ما كانت تنجح القابلة

فى إتمام العملية وسط فرحة أهل البيت والحصول على ما تيسر من «البشارة» من الأب والأقارب اللصيقين.

المعلوم ثالثا أن عملية الولادة بين أبناء الطبقة الدنيا فى المدينة أو بين الفلاحات الفقيرات كانت تتم فى ظروف أسوأ، فقد كانت القابلة فى العادة إحدى العجائز من أهل البلدة أو الحى اللاتى اكتسبن خبرة فى تلك العملية من ممارسات سابقة، وغالبا ما كانت تلك الممارسات ذات نهج خاطئ، ولعل القصة التى رواها فى هذا الشأن الأديب الراحل الأستاذ توفيق الحكيم فى كتابه «يوميات نائب فى الأرياف» تقدم مجرد نموذج على ذلك، مع ملاحظة أن تلك الرواية قد صدرت بعد سنوات غير طويلة من الفترة التى نتعرض لها.

المعلوم رابعا أن أول محاولة لتطوير مهنة القابلات قد حدثت فى عصر محمد على وبعد إقامة مدرسة طب القصر العينى، فقد ألحق بهم قسم لتدريب القابلات ضم مجموعة محدودة من الرقيقات الحبشيات، والواضح أن هؤلاء كن يقمن بتوليد سيدات الأسرة الحاكمة، فضلا عن بعض سيدات الطبقة الأرستقراطية من التركيات، ولم تنل المصريات منهن شيئا.

المعلوم أخيرا أن مدرسة الطب التى تأسست عام ١٨٢٧، والتى قد ضمت مدرسة القابلات تلك، قد طورت فى عصر إسماعيل من تلك المدرسة لتخريج متخصصات أكثر خبرة فى عملية الولادة واللاتى تسمين بالحكيمات، غير أنه لم يكن بين تخصص الدارسين من الأطباء «أمراض النساء والولادة»، فالأوضاع الاجتماعية والتقاليد لم تكن تسمح حتى ذلك الوقت للرجال أن يتولوا مثل هذه المهام.

مع إدراك كل تلك الحقائق تبدو الأهمية البالغة لظهور جمعية رعاية

الأطفال فى ذلك التوقيت بالذات ..

* * *

تم فى اجتماع الكونتننتال تشكيل أول مجلس إدارة لجمعية رعاية الطفل برئاسة رشدى باشا وسكرتارية الدكتور عبد العزيز أفندى نظمى، ونتبين من هذا الاجتماع أن طبيبا فرنسيا كان أول من أسس هذا النوع من الجمعيات فى بلده واسمه دكتور بيدر، وأن نظمى أفندى قد تأثر به كثيرا ،ونتبين أيضا أن كل ما أمكن جمعه من التبرعات رغم قوائم الاكتتاب المتتالية لم يزد عن ثلاثمائة جنيها ، وإن كانت إدارة الأوقاف قد أنقذت الموقف عندما قدمت ألف جنيه أخرى بتوجيه من الخديوى، ولعل ذلك ما دفع بعض كبار الأعيان إلى تقديم مزيد من العون للجمعية حتى أن «سعادة الهمام المفضال إسماعيل باشا أباظه وعائلته الكريمة تبرعوا بمبلغ عظيم من المال وقدره ماية جنيه مصرى أى عشرة آلاف قرش صاغ»(!)، وقد بدأ فى أعقاب تشكيل مجلس الإدارة تحديد «أغراض الجمعية» مما علمناه من بيان أصدره الدكتور عبد العزيز نظمى ونشرته الأهرام يوم ١٣ يناير، وكانت :

١) تأسيس عيادة خاصة لملاحظة ومعالجة الأطفال الأصحاء والمرضى وتوزيع الأدوية مجانا مع مساعدة الأمهات ماديا وأدبيا.

٢) عمل عيادات خصوصية للأطفال فى كل مستشفى من مستشفيات الأوقاف بالقاهرة بعد ظهر كل يوم، أى وقت عطلة المستشفيات المذكورة من أعمالها.

٣) إسعاف الحوامل الفقيرات وتوليدهن مجانا فى منازلهن بواسطة حكيمات تعينهن الجمعية على نفقتها ومساعدة تلك الواضعات الفقيرات بمدهن بما هن فى احتياج إليه على قدر الاستطاعة ورعاية مواليدهن من وقت ميلادهم».

ويلاحظ أنه منذ ذلك الوقت المبكر سعى القائمون على أمور الجمعية إلى إشراك المرأة المصرية فى أعمالها، فقد جاء فى بيان لمجلس الإدارة أن الجمعية تقبل المساعدات من مال «وملبس للحوامل والأطفال ونحث السيدات خصوصا على اشتراكهن فى هذا العمل الخيرى المفيد الذى سيعود على أمثالهن بالخير العظيم ونرجو منهن إرسال ما تجود به أنفسهن الكريمة من ملابسهن القديمة أو ملابس أطفالهن لتوزيعها على الفقيرات» !

وفى مجتمع لم يكن قد قبل بالاختلاط بعد بادرت بعض السيدات بالاجتماع فى منزل سعادة أنيس بك بسراى القبة لتأسيس ما أسمينه بـ«جمعية الشفقة بالأطفال» تكون مهمتها الأولى «إسداء البر إلى جمعية رعاية الأطفال» .. وباستثناء السيدة بتسى تقلا أرملة مؤسس الأهرام التى نشرت الصحيفة اسمها كاملا كانت أسماء الأخريات مقتصرة على الحروف الأولى مثل ز. أنيس، ن. رياض كريمة عزتلو محمد بك رياض باشمهندس نظارة الأشغال، السيدة ف. راشد بك حرم الأستاذ صاحب الدستور، حرم سعادة عمر بك لطفى، عقيلة الخواجة ديمترى بولاد من أعيان السوريين، وانهالت بعد ذلك أسماء السيدات الراغبات فى الانضمام للجمعية، والتى حرصت الأهرام على نشرها تشجيعا لهن، خاصة بعد أن قبلت «حرم أفندينا» أن تضع الجمعية الجديدة تحت رعايتها.

لم يكن قد مضى شهر على تأسيس جمعية رعاية الطفل حين أخذ مجلس إدارتها فى وضع هيكلها العام، مما تقرر فى الجلسة المنعقدة يوم ١٤ فبراير باعتماد ميزانية قدرها ألف وستمائة جنيها «للصرف على ثلاث عيادات للأطفال وإسعاف الحاملات الفقيرات فى قسمى الجمالية وباب الشعرية»، وتعيين كاتب أول للجمعية هو أمين أفندى حسين «بماهية أربعة جنيهات مصرية فى الشهر وعمولة ٤ فى المائة على المبالغ التى تحصل بمعرفته».

جاءت أهم الخطوات بتعيين حكيمة للجمعية بناء على إعلان نشرته فى الأهرام، كان مما جاء فيه أن تكون حائزة على دبلومة قانونية، الماهية: بين جنيهين ونصف وسبعة جنيهات لتخديمها لتوليد الفقيرات، الشرط: ألا تكون مستخدمة فى مصلحة أخرى، وأن تقطن فى منطقة وسط بين الجمالية وباب الشعرية، وتم بعد أيام قليلة من الإعلان تعيين الست نفوسة أفندى سامى بوظيفة «مولدة تابعة للجمعية لإسعاف الحاملات الفقيرات بقسمى الجمالية وباب الشعرية بماهية ستة جنيهات مصرية شهريا» !

تبع ذلك أن أعلن سكرتير الجمعية أنها سوف تبدأ فى أعمالها يوم الخميس ٢٠ فبراير بافتتاح عيادتين لمعالجة الأطفال أولاهما فى الحلمية الجديدة بمحل عيادة الأوقاف، والثانية بشارع السد البرانى أمام سيدى أبى الريش قسم السيدة زينب بعيادة الأوقاف أيضا، ونعتقد أنها كانت النواة التى قامت عليها بعدئذ مستشفى من أشهر مستشفيات الأطفال فى مصر.

أعلن أيضا أن العيادتين المذكورتين سوف تعملان يوميا بين الساعة الثالثة والخامسة بعد الظهر وأنها تعالج مجانا «جميع الأطفال من جميع الأجناس والملل وتصرف لهم الأدوية بلا مقابل وكذا تعمل لهم العمليات الجراحية اللازمة».

وفى نهاية الإعلان ناشد الدكتور عبد العزيز نظمى الفقراء بتقديم أطفالهم للعيادتين المذكورتين «حيث يقوم بمعالجتهم نخبة من خيرة الأطباء الذين انتخبتهم الجمعية وتبرعوا لها بوقتهم الثمين حبا فى هذا العمل الخيرى الجليل» !

ويبدو أن الجمعية قد نجحت خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عمرها فى إثبات جديتها إلى الحد الذى دفع الأمير حسين كامل باشا (السلطان فيما بعد) إلى التبرع بمبلغ هائل لها .. خمسمائة جنيها بالتمام والكمال، الأمر

الذى كان محل ترحيب بالغ من الجمعية حتى أنها قررت أن تنتخب البرنس «رئيس شرف لجمعية رعاية الأطفال المشمولة برعاية سمو الخديوى المعظم»، وأن تسمى أول مستشفى تنشئها باسم حسين كامل، بالمقابل أعرب الرجل عن أمله أن يرى قريبا للجمعية فروعا فى معظم مدن ومراكز القطر المصرى.

والواضح أن هذا التبرع السخى قد شجع آخرين من «الأسرة الخديوية الكريمة» على مزيد من الإسهام فى ميزانية الجمعية الأمر الذى شجع القائمين على إدارتها على اتخاذ خطوات أخرى فى توسيع نطاقها مما يكشف عنه الإعلان الذى نشرته الأهرام فى ١٨ مارس بأنها محتاجة لعيادتها المركزية بالدرب الأحمر إلى «طبيب ماهر متمرن ويفضل من كان مشتغلا بأمراض الأطفال بماهية شهرية من ١٠ إلى ١٢ جنيها ومدة العيادة يوميا ٣ ساعات» كذا إلى أجزجى قانونى سبق له الاشتغال بالمهنة بماهية من ٨ إلى ١٠ جنيهات .

وكان معنى ذلك أن الجمعية قد قررت أن تتخلى عن العمل التطوعى من جانب الأطباء الذين قبلوا العمل فى عياداتها خلال الفترة القصيرة السابقة، ربما لعدم انتظام المتطوعين، ثم أنها لطبيعة المترددين على تلك العيادات قد اشترطت فى الطبيب الذى يتم تعيينه أن يكون له «تمام الدراية باللغة العربية قراءة وكتابة نظرا لحالة المرضى».

بعد ثلاثة أشهر من قيام الجمعية، وبمناسبة الاحتفال بافتتاح عيادة باب الشعرية، تكشف الأهرام عن أن رعاية الطفل قد نجحت خلال تلك الفترة القصيرة أن يكون لها عيادتين أخريين، فضلا عن عيادتى الجمالية وباب الشعرية، إحداهما فى بولاق والثانية فى السيدة زينب .

بعد خمسة أشهر تجتمع اللجنة الإدارية للجمعية بديوان الأوقاف لتصدر جملة من القرارات تبين الشكل النهائى لنشاطاتها، وكانت:

* توليد الحاملات الفقيرات فى قسمى الدرب الأحمر وباب الشعرية على نفقتها بواسطة دايات قانونيات وحكيمة مصرية وأخرى أوربية، مع ملاحظة صحة الوالدة والمولود وصرف إعانات للوالدات الفقيرات مدة النفاس والرضاع على شرط تقديم طلب قبل الوضع بخمسة عشر يوما على الأقل.

* دفع إعانات مالية شهرية للوالدات الفقيرات اللاتى يتعهدن بإرضاع أولادهن بشرط أن يحضرن أطفالهن مرة فى كل أسبوع لمستشفى الجمعية لملاحظة صحتهم أو علاجهم فى حالة المرض.

* علاج جميع أمراض الأطفال على اختلاف أجناسهم ودياناتهم مجانا بواسطة أطباء مهرة معينين لهذا الغرض وصرف الأدوية مجانا أيضا، وتوزيع ألبان صحية بلا مقابل لبعض الأطفال وإجراء جميع العمليات الجراحية بواسطة مشاهير الجراحين بلا مقابل أيضا.

* القيام بعملية ختان الأطفال الفقراء بطريقة حديثة فى أول ومنتصف كل شهر، وقد أرسلت الجمعية لهذا الغرض رسالة إلى «مدير مصالح الصحة العمومية» تلفت فيها نظره إلى «عادة من العادات المضرة بصحة الأطفال ضررا بالغا، وهذه العادة مخالفة لقواعد الطب هى ختان الأطفال بواسطة حلاقين على قارعة الطريق بدون مراعاة النظافة الطبية فى أيام الموالد، وينتج عن هذه العملية أخطار جسيمة بسبب جهل الحلاقين وانتقال العدوى بواسطة الآلات غير المعقمة وعدم ملاحظة الأطفال بعد الختان».

* أخيرا إجراء أعمال نظافة الأطفال بمستشفى الجمعية «فى حمامات صحية ملحقة بها وتصرف للأطفال الفقراء بعض الملابس الضرورية».

فى فبراير عام ١٩٠٩، وفى الجمعية العمومية الأولى التى انعقدت بمناسبة مرور عام على قيام رعاية الطفل، قدم على بك أبو الفتوح عضو

مجلس الإدارة ووكيل لجنة المستشفيات تقريرا بالأعمال التى قامت بها خلال سنة ١٩٠٨ . . فتح أربع عيادات ومستشفى، إنشاء قسم للتوليد بالمستشفى فضلا عن عدد من الأسرة الصغيرة للأطفال الحديثى الولادة، علاج ١٦٩٤٤ طفلا وإجراء ٣٧١ عملية جراحية و١١٦ عملية ختان، تعيين كبير أطباء يشرف على أطباء للعيون والجراحة والأمراض الباطنة، قيام السيدة نفوسه سامى بتوليد الحوامل والسيدة فلارجى باختيار القابلات المناسبات.

ولعل كشف حساب رعاية الطفل فى عامها الأول إنما كان ينبئ عما سوف تحتله هذه الجمعية فى وجدان المصريين، خاصة الفقراء منهم.

الفصل الرابع

عبرة محمد على !

«وإذا طولعت الإحصاءات الرسمية يرى المطالع أنه قد لا يوجد فى بلاد الله بلد يكثر فيه موت الأطفال كالقطر المصرى. ففى سنة ١٩٠٨ ولد فى القاهرة ٣١٢٢٥ طفلا وتوفى ٢٢٧٢١ طفلا ومن المتوفين ٨٨١٣ مولودا حديثا و٥٧٨٢ طفلا لم يبلغ عمر الواحد منهم عشر سنوات. فهذه النكبات الشديدة بالأطفال تدل على أن مصر تخسر سبعة من ١١ من مواليدها».

كان هذا جانبا من منشور الدعوة الذى نشرته الأهرام فى عددها الصادر يوم ١٦ فبراير عام ١٩١٠ والذى وجهه عدد من «الأميرات الجليلات» لإنشاء جمعية بإسم محمد على «لحماية الأطفال المصريين تحت رعاية الجناب الخديوى وصاحبتى الدولة والدته الجليلة وحرمه المصون وسائر أعضاء الأسرة العلوية الكريمة».

كانت هذه نقطة البداية فى تاريخ الجمعية الخيرية التى عرفت بإسم «مبرة محمد على»، والتى لعبت دورا هاما فى التاريخ المصرى، خاصة فى مجال الخدمات الصحية ..

لم تر الجريدة من هذه الدعوة سوى ما اتصل بالدور الذى يلعبه الأمراء والأميرات من أسرة محمد على فى الأعمال الخيرية «فالبرنس حسين باشا يرأس الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية الزراعية والنقابات الزراعية ويعضد كل مشروع خيرى، والبرنس فؤاد باشا يرأس الجامعة، والبرنس يوسف بك كمال ينشىء مدرسة الفنون الجميلة بالقاهرة ومدرسة الفنون والصنائع بالصعيد والبرنس عمر باشا طوسون يرأس لجنة تحسين الخيول والمواشى والنباتات»، وكانت رؤية أحادية، فالقضية كانت متعددة الوجوه، منها ما هو متصل بدور المرأة فى الحياة العامة، ومنها ما هو متعلق برعاية الطفل ..

الوجه الأول للقضية يكشف عما حدث خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن التالى من سقوط «الحرملك»، والذى كان مكانا رآه مبدعوه مناسبا لصيانة «الحريم»، سواء فى بيوت الطبقة العليا التى كانت شريحتها الأكبر تتشكل من الأتراك أو المنحدرين من أصول تركية، أو أبناء الطبقة الوسطى بمختلف شرائحها والتى أخذت تتبلور إبان ذات الفترة .. من متوسطى ملاك الأراضى الزراعية، متوسطى التجار الذين استقروا فى المدن أو امتدت أصولهم إلى طوائف الحرف التجارية القديمة، أصحاب المهن الحرة، وهى الطبقة التى اتسع نطاقها بعد الأعداد الكبيرة التى اتجهت إلى تلك المهن خصوصا من المحامين والصحفيين، وأخيرا جماعات الأفندية الذين شكلوا ركيزة الجهاز البيروقراطى المصرى.

والسقوط هنا قد حدث فى جانبه المعنوى قبل حدوثه فى جانبه المادى، فقبول أبناء هذه الطبقة على تعليم بناتهم شكل المعول الأساسى لهذا السقوط، وقد جاء هذا القبول متدرجا بين أول مدرسة للبنات والتى أنشأتها «جشم آفت هانم» الزوجة الثالثة للخديوى إسماعيل عام ١٨٧٣، والتى عرفت باسم «مدرسة السيوفية»، السابق الإشارة إليها، وهى التجربة التى تآكلت بعد الاحتلال البريطانى نتيجة لقبض سلطاته يدها عن الإنفاق على التعليم، خاصة بعد أن انحسر دورها ليقتصر على إعداد البنات الفقيرات كمدبرات بيوت أو خادمات أو عاملات، غير أنها عادت للانتعاش فى أواخر الثمانينات بعد استبدال إسم مدرسة السيوفية بالمدرسة السنية .

زادت درجة هذا القبول بعد أن انتشرت مدارس الإرساليات والمدارس الأهلية، خاصة تلك التى أسسها عدد من السيدات السوريات، ومع أن عدد مدارس هؤلاء كان قليلا غير أنها انتشرت فى كثير من المدن أينما تواجد عدد معقول من الشوام، ثم أنها من جانب آخر أصبحت مثالا يحتذى للمصريين الذين أخذوا على عاتقهم وقتئذ إنشاء المدارس الأهلية.

ويبدو تحول القبول إلى إقبال مما جاء فى تقرير مصر السنوى عام قيام «مبرة محمد على» -١٩١٠- من أن عدد البنات فى المدارس الابتدائية، السنية وعباس، وصل إلى ٤٤٥ يدفع المصروفات منهن ٤٢٠، وزاد عدد البنات فى الكتاتيب إلى ٢١ ألفا بعد أن كان فى العام السابق ١٧ ألفا.

فضلا عن ذلك، فإن انتشار الصحف بكل ما حفلت به من أخبار المرأة العاملة والمتعلمة قد هيأ المناخ لخروج المصرية من أسر الحرملك، وقد انعكس هذا على كتابات المفكرين بدءا من رفاعة الطهطاوى فى مؤلفه تحت عنوان «المرشد الأمين للبنات والبنين» ووصولا لقاسم أمين فى كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» بعد نحو ثلاثين عاما، وقد تنادى الرجلان بضرورة تعليم المرأة .. وبلغة أخرى ضرورة خروجها من الحريم.

فى هذا المناخ لم يكن غريبا أن تجتمع ثلة من السيدات لتقمن، دون سند رجولى، بمشروع ارتأين فيه أنه يعود على المرأة والطفل بفوائد مطلوبة .. فالفكرة جاءت بمبادرة من "البرنسس عين الحياة هانم"، واللجنة العاملة تألفت من «الأميرات وكريمات العقائل: الرئيس دولة البرنسس نظلى هانم ونائبتا الرئيس حرم سعادتلو إبراهيم باشا فؤاد وحرم سعادتلو رشدى باشا، كاتبتا السر: مدام فوكه وحرم سعادتلو أحمد شفيق باشا، أمينتا الصندوق: مدام كارتون دى فيار ومدام أركيل بك نوبار، المستشارات: البرنسس عين الحياة هانم، مدام تقلا باشا، أعضاء اللجنة العاملة: صاحبات الدولة البرنسس سعيد باشا حليم وعمر باشا طوسون وشويكار هانم وزينب حسن باشا ودرويش راتب وحرم عطوفتلو محمد باشا سعيد وسعادتلو على باشا شعراوى وسعادتلو صالح باشا ثابت».

ويؤدى استقراء هذه القائمة إلى الخروج بمجموعة من الحقائق:

* بداية تكون ما أصبح يسمى فيما بعد بسيدات «الطبقة الراقية» والتى

كانت شرائحها، فيما تكشف عنه القائمة إما من سيدات الأسرة الحاكمة (البرنسسات) أو من زوجات كبار رجال الدولة وكبار الأعيان، أو من الأرمن الذين احتلوا مكانة هامة داخل هذه الطبقة، أو من الشاميات اللاتى كن أسبق فى حركة التحرر من الحرملك فى طليعتهم زوجة بشارة تقلا التى كانت تتولى إدارة أمور الجريدة العريقة بعد رحيل زوجها، وأخيرا عدد من الأجانب وتشى القائمة بأنهن كن من الفرنسيات على وجه الخصوص، بحكم تآلفهن أكثر مع سيدات تلك الطبقة من المصريين .

* إذا كانت جشمت آفت هانم أول من استن تقليد الخروج إلى العمل العام من أميرات الأسرة الخديوية بعد أن قامت بتأسيس المدرسة السيوفية، فإن أخريات ممن حملن لقب «هانم أفندى» قد تبعوها وطفوا على سطح الحياة العامة خلال تلك السنوات كانت أشهرهن «نازلى فاضل هانم أفندى» التى أقامت صالونا معروفا يجتمع فيه المبرزون من المصريين كل أسبوع واستطاعت أن تضم حولها عددا من هؤلاء، الذين لعبوا دورا كبيرا فى التاريخ المصرى .. فى طليعتهم سعد زغلول . هذا فضلا عن أمينة هانم والدة الخديوى التى كثيرا ما تدخلت فى النشاطات العامة ونعمت الله هانم شقيقته والتى ارتبط إسمها بالإسهامات التى قدمتها للجامعة المصرية.

* أنه من بين هؤلاء اللاتى تصدين للعمل فى أول مشروع نسائى فى مصر .. مبرة محمد على، خرجت أهم قيادات عمل المرأة بعدئذ التى لم تكتف بالاهتمام بالعمل الاجتماعى، وإنما انخرطت فى العمل السياسى، مما يؤكده دور إحدى هؤلاء .. السيدة هدى شعراوى التى ارتبط العمل النسائى بإسمها لفترة غير قصيرة بعدئذ.

الوجه الثانى المتعلق برعاية الطفل، ومعلوم أنه قبل نحو ثلاثة أعوام كان قد تم إنشاء «جمعية رعاية الطفل»، وكانت أغراضها قريبة جدا من أغراض

«مبرة محمد على» باستثنائين: فبينما كان المشروع الأول ذكوريا تماما مع الاستعانة ببعض الطبيبات والحكيمات فى الجانب التنفيذى، فقد حرص أصحاب المشروع الثانى أن يكون أنثويا تماما، هذا من ناحية، من ناحية أخرى، فإن رعاية الطفل صرفت الجانب الأكبر من اهتمامها للأمهات بينما توجهت أنظار مؤسسى المبرة إلى الأطفال، فى البداية على الأقل، إذ المعلوم أنه قد تنوعت اهتماماتها على نحو كبير بعدئذ.

* * *

لم تضيع صاحبات المشروع وقتا طويلا، فقبل مرور شهر على الإعلان عن نيتهم على تكوين الجمعية الجديدة، وفى ١١ مارس عام ١٩١٠ وتحت عنوان «مبرة محمد على» نشرت الأهرام قانون الجمعية ، وكانت المرة الأولى التى أطلق القائمون عليها تلك التسمية .. (المبرة) بمعنى صناعة البر، وهى التسمية التى انفردت بها عن سائر الجمعيات الخيرية..

المقدمة : الجمعية تألفت تحت رعاية سمو الجناب العالى الخديوى وصاحبتى الدولة والعصمة والدته وحرمه المصون وسائر أمراء وأميرات البيت المالك الخديوى.

الغرض: أن تشتغل الجمعية جهد طاقتها لصيانة الأطفال المصريين من الأمراض والأدواء وصيانة الأمهات من حمى النفاس.

الوسائل: إنشاء المستشفيات التى تشجع الأمهات وتنشطهن على قبول المساعدات الصحية المجانية وتعليم الأمهات بواسطة الممرضات والطبيبات أسباب المرض وطرق الوقاية منه وكيفية تغذية الطفل وما شابه ذلك من الوسائل العلمية والعملية والاستعانة على بلوغ هذه الغاية بطبع النشرات ونشر المقالات فى الجرائد وإلقاء المحاضرات وتوزيع الصور وتوسيع نطاق

تعليم الصحة والنظافة لجميع طبقات الشعب وزيارة النساء القريبات الوضع فى منازلهن مع القوابل.

تعلق الأهرام على هذا القانون بالتنبيه إلى الغاية الشريفة التى تسعى «مبرة محمد على» إلى تحقيقها لأنها «تحفظ حياة الألوف أو ألوف الألوف من الأطفال الذين لا يكادون يفتحون عيونهم للدنيا حتى تتتابهم الأدواء وتحصدهم الأمراض حصدا فتحرم الأمة آلافا من أبنائها الذين قد يكونون حياتها بل تحرم الإنسانية تلك الآلاف».

ولا تغفل جريدتنا أن تلاحظ الطبيعة الطبقية للقائمات بالمشروع ممن أسمتهم «نساء مصر الكريمات اللاتى برهن بمؤازرة هذا المشروع على مدنيتهن ونهوضهن إلى مصاف الرجال والسير فى صف النساء المتمدنات»، وترى أنهن بعملهن هذا «يهذبن ويعلمن نساء الأمة ويدفعن عن بيوت الفقراء أحزانا وعن قلوب الأمهات ثكلا» !

فى منتصف يناير من العام التالى رصدت الأهرام دخول المبرة مجال العمل، ويبدو أن التأخير الذى ناف عن تسعة شهور، يعزى إلى نقص التمويل مما تكشف عنه الأهرام فى أحد أخبارها من أن الجمعية قد أصدرت خلال تلك الفترة «يانصيب» وأنه قد تم السحب عليه فى احتفال أقيم فى سراى عمر طوسون فى شبرا، وأن جهات عديدة شاركت بالتبرع لهذا الاحتفال كان أطرفها تبرع شركة سالونيك للدخان «بكمية وافرة من سكايرها المشهورة» !

البداية سجلتها جريدتنا فى ١٦ يناير عام ١٩١١ حين تم افتتاح العيادة الأولى للجمعية بشارع البرمونى «بحضور صاحبة الدولة الحرم الخديوى المصون ووالدة ولى عهد الأريكة الخديوية ونخبة السيدات وكريمات العقائل»، وكان فى استقبالها مجلس الإدارة على رأسه البرنسس نظلى

هانم أفندى، والذى ضم خمس برنسسات أخريات؛ حرم عمر طوسون، عزيزة محسن، عفت وزينب حسن وشويكار.

وبعيدا عن مظاهر الاحتفال التى اتفقت فى أغلب المناسبات التى كان يحضرها الخديوى أو حرمه المصون، قدمت الأهرام وصفا للعيادة: قاعة كبيرة فى وسطها، على جانبيها غرف التمريض، أما هيئة العيادة فقد رأستها حكيمة إنجليزية هى المس كروز وضمت ثلاث ممرضات وطنيات، فضلا عن طبيبين مصريين هما رفعت أفندى وعلى علوى أفندى، ولم يكن هذان فى الغالب عضوين فى هيئة العيادة إنما كانا يترددان عليها فى أوقات محددة، ومن أجل إرضاء الأميرات وسيدات الطبقة الراقية.

ويبدو أن مسألة التمويل ظلت تؤرق البرنسسات وأترابهن، فعلى الرغم من تعهد حرم الخديوى بدفع تبرع شهرى، وعلى الرغم من نجاح هؤلاء فى الحصول على تبرعات من أزواجهن أو أقاربهن إلا أنه لم يتوافر المال الكافى لأن تسير المبرة قدما فى تحقيق أغراضها، الأمر الذى دفعهن إلى ابتكار وسائل جديدة للحصول على موارد أخرى للتمويل، فقمن بأول مشروع سياحى ربما فى التاريخ المصرى الحديث، فيما روته الأهرام فى عددين من أعدادها فى آخر فبراير .

المشروع يقصد به «إنماء ريع هذه المبرة الخيرية بالاستفادة من إقامة السياح الأجانب فى ربوع القطر المصرى خلال فصل الشتاء»، أما كنهه: «إقامة حفلة ليلية لتسلية الخواطر وشرح الصدر بجلب أسباب الهناء والسرور يتضمن أشياء تجمع إلى الغرابة أنها ستكون الوحيدة فى نوعها».

وقد نجحت عضوات الجمعية فى دفع كثير من الأعيان والذوات على إخراجه إلى حيز الوجود فى مقدمتهم الأمير عمر طوسون باشا «الذى جعل سرايه الفخمة فى شبرا تحت تصرف المبرة لتلك المناسبة اللطيفة والغاية

الشريفة»، بهدف أن تكون معرضا «لما ورثته بيوت الأمراء المصريين والعثمانيين من نفيس الجواهر وكريم الأحجار وقديم المزركشات ونادر الشيلان أهم ما تتلهى به الأنظار فى تلك الليلة التى لم يسبق لها نظير فى ليالى الحفلات المصرية، كل هذا فضلا عن أن غرفا كثيرا من غرف السراى ستفرش بحسب الطراز القديم والعادات المرعية فى الأزمنة السابقة حيث يشاهد الداخل فيها حوادث ومناظر تمثل تمثيلا يكاد يقترب من الحقيقة للحياة البيتية لسيدات تلك الأزمان».

باختصار، فقد سعت عضوات جمعية المبرة إلى إضفاء مزيد من أسباب الروح الشرقية التى توقعوا أن تكون محلا لإبهار السياح بعرض ألوان من العادات والتقاليد التى أخذت فى الاختفاء، أو التى كانت حتى ذلك الوقت حبيسة الحرملك ..

منها: حفلة عرس كبيرة «منذ الساعة التى تبرح العروس فيها حجرة ذويها وآلها إلى الساعة التى تدخل فيها غرفة سريرها وعرسها وبعد هذا تجرى مراسم الوليمة كما لم يبق لتشبيهها حقيقة مصورة سوى أن يجلس على موائدها المدعورون» !

ومنها، وفى قاعة أخرى تقوم راقصات تركيات «بصنوف من الرقص الذى ظل زمنا طويلا من ملاهى ربات الجمال فى حرمهن الأميرى».

ومنها فى قاعة ثالثة نصب «قهوة مصرية تكون السيدات المصريات فيها بملابسهن القديمة التى باللأسف أصبح لا يُرى شىء من نوعها الآن وستقوم هذه السيدات بتقديم مرطبات من أجود صنف وأحسن نوع لمن يرغب التعاطى منها وستشنف الأسماع فى الحفلة موسيقى وطنية كما ستتوفر صنوف الملاهى والمسرات المصرية التى لم يقف الأوروباويون على خبرها إلا سماعا فقط» !

ويتضح من بقية الخبر أن الحضور كان مقصورا على السيدات، وقيمة التذكرة جنيه واحد، وهو مبلغ كبير على حضور حفلة فى ذلك العصر، وترسل هذه القيمة «إذا كانت الطالبة من الطوائف الأوربية إلى صاحبة العصمة الأميرة شويكار يسرى ومدام كارنون دى فيار ومن الطوائف المصرية إلى صاحبة العصمة الأميرة سعيد حليم».

تقدم الأهرام فى ٢٨ فبراير عام ١٩١١ وصفا شائقا لأول حفلة سياحية فى التاريخ المصرى .. للوصول إلى السراى كانت تعبر السائحة الشارع الذى يصل بين بابها وشارع شبرا والذى اصطف على جانبيه رجال البوليس «وما حلت الساعة الثامنة حتى أضاءت الأنوار وتلألأت المصابيح واجتمعت الأميرات والسيدات القائمات بهذه المبرة الجليلة فى القاعة الكبرى».

مع حرم الخديوى كان فى مقدمة الحضور صاحبة السمو الإمبراطورى زوجة ولى عهد ألمانيا حيث دخل الجميع قاعة العرش «وهى قاعة كبرى تسع عشرات المئات من الأنفس والعرش منصوب إلى يمينها والجدران مجللة بشالات الكشمير الثمينة الزاهية الألوان والثريات الفضية تتدلى من سقفها والمقاعد والمتاكىء محلاة بالكشمير والعرش على قوائمه الذهبية تتدلى فوقه السجف الوردية وللقاعة هيبة وجمال، وفى صدرها صور الأمراء آل البيت العلوى من محمد على إلى اليوم».

فى قاعة أخرى ومن وراء ستار كان الشيخ يوسف المنيلاوى ينشد أطيب الأناشيد العربية، بعدها إلى قاعة الأثاث الشرقى النفيس، ومنها إلى قاعة الجواهر القديمة «وفيها سيف محمد على مرصع بالألماس وآنية قصر سعيد باشا وكلها مجزعة بالحجارة الكريمة وطبنجات محمد على ونظارة أهداها نابليون الثالث لسعيد باشا ومزهريتان من ذلك الإمبراطور .. خرجن بعد ذلك قاصدات سماع المغنيين والمغنيات فشهدن رقص الصيرفية وسمعن

أناشيد العوالم وغناء تخت صالح أفندى التركى وكن نحو ١٥٠٠ سيدة وعقيلة. وكانت الأميرات والسيدات لابسات الزى التركى أى السروال المطرز واليلك بالقصب مع التاج على الرأس».

قبل منتصف الليل تم تمثيل زفة العروس «فسارت العروس يتقدمها موكب الأغوات والسيدات بأيديهن الشموع وحولهن المنشدات إلى العرش وبعد هذه الزفة فتح المقصف وفيه ما لذ وطاب ثم فتحت السوق الخيرية للبيع والشراء»، ولحج الاحتفال على نحو سعدت به الأهرام وقبلها بالطبع الأميرات من أعضاء مجلس إدارة مبرة محمد على !

* * *

يبدو أن نجاح حفل سراى طوسون باشا قد صنع تغيرا هاما فى تاريخ المبرة يمكن رصده بسهولة فى أعقابه، فقد قررت المسئولات عن المبرة أن تخضن ميدانا آخر مع ميدان العناية بالأطفال، ووقع اختيارهن على ميدان التعليم، وبالذات تعليم البنات، وكان لهذا الاختيار ما يبرره ..

فحتى ذلك الوقت اقتصر تعليم البنات ما فوق مرحلة الكتاتيب، باستثناء الأعداد المحدودة التى كانت تتخرج من المدرستين الحكوميتين، السنية وعباس .. اقتصر على غير المصريات؛ مدارس الإرساليات التبشيرية، خاصة الفرنسية، والمدارس الخاصة التى فتحها وتولى إدارتها «الخواتين الفاضلات» من العناصر الشامية !

بشرت الأهرام بهذا الاتجاه الجديد فى مقال طويل تحت عنوان «تعليم البنات ومبرة محمد على» حاولت فيه أن تفسر الأسباب التى دعت مسئولات المبرة، وهو أنهن فى محاولتهن إرشاد الأمهات إلى تربية أولادهن وقفن على مقدار انحطاط المرتبة الدنيا الفقيرة من نساء البلاد ورأين أن

ذلك لا يكون بإرشادهن فقط «بل بهذر بذور التعليم بينهن بتعليم عدد من البنات الفقيرات».

برنامج المدرسة كما استقر عليه رأى سيدات الطبقة الراقية «تعليم البنات القراءة والكتابة والحساب البسيط ثم الخياطة وأشغال المنزل والغسل والكى والطبخ ورأين أن البنت التى تعلم لا تصاغ صياغة صحيحة إلا إذا كانت المدرسة داخلية حتى لا يكون للبيئة والوسط تأثيرا يذهب بالعلم الذى تتلقاه الفتاة فى المدرسة» !

وكان من الطبيعى أن تعبر صحيفتنا عن ارتياحها للمشروع الجديد غير أنها ارتأت أنه لا يظهر إلى حيز الوجود بغير المال «ولا يوجد المال إلا من المحسنين والوطنيين الذين يريدون إنهاض أمتهم .. وإذا كانت نظارة المعارف هى التى بنت مدرسة التدبير المنزلى فإنها لا يمكن أن تقوم بما تقوم به مدرسة تتولى إدارتها أفضل سيدات مصر وأعرفهن بحاجة الفتاة وأقدرهن على تعليمها .. وتعتمد الجمعية على موردين ينيلانها غرضها الأول إحسان الوطنيين والثانى مساعدة الحكومة».

سعيا وراء الحصول على المال اللازم أقامت الجمعية احتفالا آخر والذى درجت الأهرام على تسميته بـ «عيد مبرة محمد على»، وجاء فى هذه المرة فى سراى صدقى باشا فى شارع الفلكى فى أوائل مارس عام ١٩١١ ..

برنامج الاحتفال إحياء سهرة شرقية «تتضمن المغنى والرقص والمهرجان وزف العروس وتماثيل حية بأزياء مصرية قديمة تمثلها طائفة من السيدات الأوروبيات وستكون نادرة فى بابها وتقام سوق شفقة (خيرية) للبيع والشراء ويانصيب على هبات وتبرعات وأنصبة عديدة ثمينة منها طاقم شاى كامل من الفضة وغير ذلك مما أتحفت به الجمعية الأميرات والسيدات الكريمات»!

والواضح أن تلك الاحتفالات قد نجحت فى تدعيم المركز المالى للجمعية، الأمر الذى دعا عضواتها فى فبراير عام ١٩١٢ إلى الاستعداد لافتتاح المدرسة التى قررن إقامتها والتى حدث فى بنائها قدر من التغيير .. غرض برنامج المدرسة «تكوين الصفات الأدبية فى البنت وتعليمها حالة نفسها وشرفها وذمتها»، البرنامج: تعليم الديانة الإسلامية وممارستها والقراءة والكتابة والحساب وعلم الأشياء باللغة العربية على أن يكون لفن الخياطة النصيب الأوفر من وقت التلميذة مع غسل الملابس والكى والكنس والتنظيف. النظام: المدرسة داخلية تقدم للبنات كل حاجتهن «من مأكل وملبس وكتب ومنامة»، شروط القبول: أن يكون عمر التلميذة من ٨ إلى ١٢ سنة «وأن تكون جيدة الصحة من أبوين بلا شائبة أدبية ومن تتطلب حالتهم الإحسان»، وقد ابتدع قانون الجمعية فكرة جديدة فى هذا الشأن وهى أن «كل من تعهد بإعطاء الجمعية ١٢ جنيها فى السنة يمكن أن يدخل فتاة للمدرسة لتلقى علومها»، وانتهى الإعلان بفتح باب تقديم الطلبات.

وإذا كان ثمة ملاحظات على أعوام التأسيس للمبرة، فإنها أرست أولا، تقليدا جديدا لدخول المرأة ميدان الخدمة الاجتماعية حتى لو كانت من سيدات الطبقة الراقية، وأنها قدمت ثانيا، نوعا من العمل الخيرى الذى لا يقتصر على وجه واحد من وجوه أداء الخدمة الاجتماعية وإنما امتد ليشمل أكثر من وجه مما أكده تاريخ المبرة بامتداد عمرها الذى طال أكثر من المتوقع!

الفصل الخامس

زواج الفتيات !

فى أوائل مارس عام ١٩١٤ تقدم زكريا بك نامق المحامى عضو الجمعية التشريعية بمشروع قانون بشأن تزويج الفتيات المصريات، وهو المشروع الذى أثار جدلا واسعا، وشكل فصلا من فصول رواية ممتدة .. رواية حماية المرأة والاهتمام بشئونها، والتى تتالت فصولها منذ أن أصدر قاسم أمين كتابه المشهور "تحرير المرأة" عام ١٨٩٩ أى قبل عقد ونصف.

مشروع القانون خصصت له الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢ من ذلك الشهر ما يقرب من صفحة كاملة تقدم قراءتها صورة ممتعة لأوضاع امرأة هذا الزمان، خاصة ما اتصل منها بقضايا الزواج وتكوين الأسرة، وهى قضية كانت محل اهتمام الرأى العام المصرى خلال الشهور السابقة ..

فقد تبنت الأهرام خلال تلك الشهور حملة صحفية نشرتها تحت عنوان «الشبان وإعراضهم عن الزواج»، وكعادة جريدتنا فى مثل تلك الحملات فقد فتحت صفحاتها للقراء ليقدموا آراءهم فى هذا الشأن .. شأن أزمة الزواج التى يبدو أنها كانت قد استحكمت وقتذاك.

فى عدد الأهرام الصادر يوم ١٠ ديسمبر عام ١٩١٣ كتب القارىء محمد البرديسى مقالا ممتعا حول هذه الأزمة عرّف الزواج فى مستهله بأنه «رباط دينى، طبيعى، فطرى، مدنى وإن شئت أن تعبر عنه بعبارة أوضح فقل سنة الله فى خلقه حفظا لهم من الاضمحلال والتلف».

ويتوقف صاحبنا عند أقوال طائفة من الفلاسفة القدماء، أسماها طائفة المركونين، ارتأت أن «الزواج بدعة سيئة من شأنها استعباد الأرواح والأنفس وسجنها فى سجن مادى»، ومع أنه يعترف أن هذه الفكرة دخلت أذواق بعض الناس «فقد أبطلتها أبحاث الباحثين ومزقتها نتائج التجارب ولم يبق لها أثر».

ويضرب مثلا يدلل به على أن الزواج كان دائما أداة عمران الأمم .. المثل من التاريخ الرومانى، استقاه من الفترة التى أعقبت حروبا أهلية طويلة بين الرومانيين بعضهم وبعض، حتى امتلك زمامهم امبراطور قوى فرأى أن «سنن الزواج قد عبثت بها الأغراض والشهوات فبدأ النقص ينخر فى عظام مجتمعهم» فسن قوانين جديدة وخص المتزوجين فيها بمكافآت كثيرة وهبات جزيلة وضرب على غير المتزوجين ضرائب ثقيلة فأخذ الناس يتسابقون إلى الزواج ليوفروا على نفسهم دفع الضرائب وليفوزوا بأخذ الهبات، وخلص من ذلك إلى القول أن «الزواج لازم لحفظ سلامة البشر وراحة ضمائرهم» !

من العام إلى الخاص حيث يرصد البرديسى ظاهرة إعراض الشبان عن الزواج حتى صار لكثرة البنات غير المتزوجات سماسرة يحسنون فيهن أمام الشبان كما للبهائم والعقارات وما ذلك إلا لإعراضهم عن الزواج وعدم الرغبة فيه، ويخرج من ذلك إلى محاولة تحديد أسباب ذلك الإعراض فشخصها فى أربعة:

١- ما لاحظه من التقدم فى مدارك وأذواق الشبان المصريين «وهذا بفضل اختلاطنا بالأجانب ونشر مدنيتهم بيننا، لذلك ترى الشاب المتعلم منا لا يريد إلا الزواج بفتاة متعلمة يراها قبل عقد زواجه بها خوفا من الشقاء العائلى وحرصا من جراثيم الفساد الذى يؤدى إلى هدم دعائم الوفاق وتقويض صروح المحبة بينهما وهذا أمر غير متوفر فى هذا العصر فإن تعليم البنات لا يزال فى أول أمره .. ومن جهة أخرى فإن عدم التصريح برؤية العروس قبل الزواج يجعل فى قلوب الشبان إحجاما عن الإقدام على الزواج خوفا من الشقاق والطلاق» !

٢- ما ارتآه من أن تربية البنات فى مصر وقتذاك كانت "ناقصة مختلة" على حد تعبيره، «فلا تراعى حالة زوجها الأخلاقية ولا المالية فلا تعمل إلا

ما توحيه إليها خلاقها التى شبت عليها فى منزل أبيها وناهيك بطلباتها الباهظات التى ربما أثقلت كاهل زوجها بالديون».

٣- ما رصده من محدودية إيراد أغلب الشبان «فالشاب الذى يتقاضى مرتبا شهريا قدره خمسة جنيهات أو الذى لا يزيد دخله عن ذلك لا يستطيع أن يقتصد من هذا المبلغ الزهيد مهر زواجه وقيمة تكاليفه إلا بعد مدة طويلة، ولو فرضنا جدلا أن قيمة المهر وتكاليف الزواج توفرت لديه فمرتبه لا يساعده على تربية أبنائه».

٤- ما سمع عنه من أن طرق الكسب فى مصر «أصبحت ضيقة على أهلها حتى أنك لا تحادث تاجرا أو زارعا أو موظفا أو صانعا إلا ويشكو كساد سوقه وقلة نتاجه وغلاء الحالة وقلة الدخل وبوار الصناعة وغير ذلك من الأشياء التى تزهد الإنسان فى حياته وتجعله يفضل أن يعيش فريدا لا يهمه إلا أمر نفسه دون غيره»، وما أشبه الليلة بالبارحة !

إبراهيم أحمد فتحى قارئ آخر أدلى بدلوه فى الموضع فكتب مقالا تحت نفس العنوان فى عدد الأهرام الصادر يوم ١٩ ديسمبر عام ١٩١٣ استهله بقوله «لاشك أن إعراض الشبان عن الزواج ميكروب سرى إلى العالم والمتعلم وأصحاب الجلابيب الزرق»، غلبت عليه رنة الاحتجاج على الذرائع التى انتحلها البعض لتبرير هذا الإعراض ..

فقد احتج على ما تذرع به البعض من أن سبب الإعراض هو عدم وجود بنات متعلمات، أو قلة مرتبات البعض، أو التعميم الذى لجأ إليه عدد ممن كتبوا عن هذا الموضوع بقولهم أن «الحالة موجبة لليأس» !

ردا على الذريعة الأولى بقوله: «ليس السبب ما ذكره البعض أن عندنا عددا لا يذكر من البنات المتعلمات.وعدم وجود من يوافق تعليم الشبان

منهن، فمن ينظر إلى حالاتنا الاجتماعية يجدها مع الأسف متزعزعة الأركان فالمصرى يحب الزى الجميل حبا جما لذلك لا يريد أن يشتغل إلا فيما يوافق زيه البديع» !

بالنسبة للذريعة الثانية .. قلة مرتبات الشبان أو بطالتهم رفضها بقوله «إن لدى المصرى من المشروعات والأشغال ما يشغل آلاف الألوف من الرجال لأن من ينظر إلى الشركات والمحلات التجارية يجدها بيد الأجنبى، فلو أن الوطنى جد واجتهد وزاحم لوجد المجال واسعا فإنه يكون له شأن يذكر وثروة طائلة».

وانتهز إبراهيم فتحى الفرصة لينزل تقريعا فى شبان تلك الأيام الذين «ينتشرون فى القهوات يقضون أوقاتهم فى اللهو واللعب ولا يذهب واحد إلى بيته إلا بعد انقضاء أكثر الليل وبعد أن يبدد ما لديه من النقود فلو اقتصد لتوفرت لديه مبالغ طائلة من ثمن قهوة وشيشة وشرب ولعب» !

بالنسبة للحالة الموجبة لليأس يرى قارىء الأهرام صاحب هذا المقال أن الشبان هم الذين صنعوا بأيديهم تلك الحالة لأن أغلبهم «مسرفون ولا يعرفون طريق الاقتصاد يذهبون لمحلات اللهو والفجور ولهم عند ينى وينايوتى حساب». وينهى الرجل مقاله بقوله «لو حبسنا هذا التيار لانتفعنا وكنا من السعداء. وعندى أن ما من شاب يبغض الزواج بأى حال من الأحوال فالتمسك بقواعد الدين وإعطاء كل ذى حق حقه أس النجاح».

وفى غمار هذا الاهتمام العام بشأن الزواج تقدم زكريا نامق بمشروعه مما شكل الفصل الثانى من قضية تزويج الفتيات المصريات، وقدم جانبا آخر منها ..

* * *

الجانب الجديد الذى طرحه عضو الجمعية التشريعية متصل بظاهرة قديمة فى مصر .. ظاهرة زواج الفتيات الصغيرات والتى انتشرت بين مختلف طبقات الأمة: «الطبقة الفقيرة خصوصا إذا امتازت الصغيرة بشىء من الحسن، كما يحصل فى الطبقة الوسطى كأن تكون الصغيرة ذات مال يخطبها زوج بينه وبين وصيها صلة قرابة أو نسب، ويشاهد أيضا فى الطبقة الغنية كأن تكون أم الصغيرة جاهلة وذات سلطان على زوجها فتعجل بزفاف بنتها شوقا إلى الإسراف وإقامة الولائم والأفراح» !

مشروع القانون الذى قدمه نامق بك للجمعية دعمه بشهادة عدد من كبار أطباء المحروسة فى ذلك العصر؛ سعد الخادم، علوى باشا، موريسون، محمود كامل، عبد العزيز نظمى، على شوقى الذين كان عليهم أن يجيبوا على عدد من الأسئلة وضعها مقدم المشروع .. السن المناسبة لتمام نمو جسم الفتاة، أثر الزواج فى هذا النمو، تأثير الزواج على صحة الفتاة التى لم تتجاوز الثانية أو الثالثة عشرة، وتأثير الحمل على صحتها ونسلها، والسؤال الأخير عن السن المناسبة للزواج ؟

الإجابة: عدد من هؤلاء رأى أن السن المناسبة بين ١٨ و ٢٠ سنة، آخرون رأوها ست عشرة سنة، وأقلية رأت أنه يجوز زواج بنت الخمس عشرة،وبعد أن نبه صاحب المشروع إلى الجنايات التى تصل إلى المحكمة من جراء وفاة البنت فى ليلة زفافها بسبب صغر سنها، علق على هذه الإجابات بالقول «وعندى أن نختار السادسة عشرة لأن هذا هو الرأى الأوسط المعتدل، ومن أراد الكمال فهو حر فى ذلك» !

ولما يعلمه نامق بك من رفض المصريين لمثل هذا المشروع إذا ما ارتأوه مناقضا للشريعة، فقد حاول أن يدعمه بعدد من الأسانيد الشرعية واستعان فى هذا بآراء أستاذ الشريعة فى مدرسة الحقوق، الشيخ محمد زيد بك، الذى تلقى بعض دروسه على يديه، والتى جاء فيها:

« رأى الحنفية وإن صح أن الولى يزوج البنت فإنها لا تسلم إلى الزوج إلا إذا كانت تطيق الزواج حتى أنهم قالوا إذا اختلف الولى والزوج فى الإطاقة يحكم بينهم أرباب الخبرة » !

دلف من ذلك إلى قاعدة شرعية أخرى وهى أن « الحاكم متى حكم فى غير معصية وجب امتثال أمره وليس من المعصية أن لا يتزوج الرجل إلا بفتاة عمرها ست عشرة سنة أو أكثر .. وإذا أمر الحاكم فى الديار المصرية بأنه لا يجوز زفاف البنت إلى زوجها إلا إذا بلغت ست عشرة سنة من عمرها وجب إتباع أمره شرعا لأن هذا الأمر لم يصادف معصية وتصبح مخالفته حراما وتستوجب التعذير شرعا ».

خلص عضو الجمعية التشريعية من كل ذلك إلى ضرورة إصدار قانون يحدد عمر البنت المصرية لإتمام الزواج بستة عشر عاما على الأقل، على أن يتم ذلك بإحدى طريقتين؛ إما معاقبة من يخالف ذلك، وإما منع المأذون من مباشرة العقود على الفتيات اللاتى لم يبلغن السادسة عشرة ومعاقبة من يخالف ذلك من المأذونين.

وإذا ما تبنت الجمعية الطريقة الأولى فعليها أن تكيف الجريمة، مخالفة أم جنحة واعتبارها « مخالفة بسيطة أمر غير مقبول لأنها لا تترك أثرا سيئا خلفها .. وعقوبة المخالفة غرامة قليلة أو الحبس مدة لا تتجاوز أسبوعا وبناء على ذلك أرى وجوب عد هذه الجريمة جنحة على الأقل».

كعادة الأهرام فى مثل هذه القضايا التى تمس الرأى العام فتحت صفحاتها لمداخلات القراء، خاصة أولئك الذين يتقدمون بوجهة نظر مخالفة، والتى نختار منها مقالين طويلين .. أولهما لطبيب هو الدكتور محمد توفيق صدقى، والآخر لقارئ اسمه إلياس الغضبان ..

تحت عنوان «سن الزواج للفتيات-بحث علمى دينى قانونى» نبه الدكتور توفيق إلى ما لم يتنبه إليه نامق أفندى وهو أن «سن البلوغ يختلف باختلاف حرارة الجو والبيئة والوراثة ففى الهند مثلا كثيرا ما تبلغ الفتاة فى السنة التاسعة من عمرها .. أما فى مصر فالغالب فيها أن يكون فى السنة الثانية عشرة إلى الرابعة عشرة .. وقد اتفقت كلمة علماء التشريح على أن نمو عظام الحوض الذى من شأنه أن يؤثر فى سعة أقطاره يتم فى زمن البلوغ أو بعده بقليل».

وبعد أن فند الدكتور محمد توفيق ما جاء به نامق أفندى من معلومات طبية عن التأثيرات الصحية الخطيرة للزواج المبكر على البنت المصرية «فالحمل لا شك يسرع فى تمام نمو الجسم كله ولذلك نجد أن الفتاة بعد الولادة يكبر جسمها بأسرع من الفتاة التى لم تتزوج».

غير أن أطرف حجج هذا القارىء كان ما اتصل منها بتأثير زواج كبار السن من الفتيات الصغيرات فيما جاء فى قوله نقلا عن أحد الكتب القديمة «إن مساكنة البنات الفتيات ذوات الدم الوافر والصحة الجيدة يتطاير منها نشأة منعشة تخترق جسم الشيخ الجاف وتسخن دمه الضعيف الفاتر وتحرك فيه الأعضاء الذابلة»، ويدلى برأيه فى هذا القول فيسوق ما جاء فى كتابات بعض العلماء أن «من الشيوخ من اسود شعره ونبتت أسنانه مرة ثالثة بعد سقوطها بسبب معاشرة الفتيات الصغيرات .. ولاشك أن صحة البنات فى وقت البلوغ تكون أحسن منها فى جميع الأوقات الأخرى فيؤثرون على الرجل تأثيرا قويا فينتفع هو وينتفعن هن بماله أو جاهه خصوصا إذا كان من أصحاب الملايين أو الملوك» !

وبغض النظر عن رأى الدكتور توفيق الأخير فى الدفاع عن حق المسنين فى الزواج بالصبايا الصغيرات فإنه اعترض على تحديد سن البنت بستة

عشر عاما كشرط للزواج، وتمسك بما كان يقرره القانون المصرى وتتشدد فى عقوبة الفسق بأن يجعلوا سن الزواج ١٤ سنة فما فوق.

الياس الغضبان قارىء آخر قدم نفسه بأنه من المشتغلين فى هذه المباحث «ولى مؤلفات مطولة شرحت فيها شرحا وافيا جميع الأضرار التى تنتج عن الزواج الغير القانونى»، الأمر الذى بدت معه قدرته على أن يدلى برأيه سواء فيما ذهب إليه زكريا نامق وأيده فى بعضه أو ما ذهب إليه محمد توفيق وأيده أيضا فى بعضه، غير أنه خلص إلى الأخذ برأى الثانى فيما أنهى به مقاله من قول «إنى أرى نظير ما يراه الدكتور محمد توفيق صدقى وهى تحديد سن زواج الفتيات بالسن التى حددها القانون المصرى الحالى أى أربع عشرة سنة فما فوق وذلك بتقديم سنة على القانون الفرنساوى لما يقتضيه فرق مناخ البلاد» !

دفع ذلك الأهرام إلى أن تخصص مقالها الافتتاحى فى عددها الصادر يوم ١٨ مارس عام ١٩١٤ لهذا الموضوع تحت عنوان «زواج البنات الصغيرات» انحازت فيه لرأى نامق بك «لأنه لا يطلب من الزواج النسل فقط، ولا يطلب من النسل الوجود فقط بل يطلب من ذلك النسل أن يكون راقيا قويا نشيطا مهذبا فهل يمكن الوصول إلى هذه الغاية من تزويج الصغار؟؟ إنا نقول لا وألف لا».

وتنهى جريدتنا مقالها بأن تعلن صراحة تأييدها لنامق بك وأنه «لا يكون البناء صحيحا متينا إلا إذا كانت مواده صحيحة سليمة ولا تكون أمة إلا بكثرة النسل الصالح المهذب العارف المربى ولا تصل إلى هذا النسل إلا من الأم فنحن بحاجة إلى المرأة لا إلى الأنثى»، غير أن ذلك التأييد لم يمنع من استمرار هجوم الصحف الأخرى على الرجل، الأمر الذى دعاه فى النهاية إلى سحب مشروعه، ولكن بعد أن فتح الباب للحديث فى موضوع لا ينتهى،

وكانت صفحات الأهرام محلا لبعض أطراف هذا الحديث.

* * *

بعض من هذا الحديث دار حول زواج المرضى، بينما دار البعض الآخر حول زواج الفقراء.. والبعض الأخير حول زواج الموظفين !

زواج المرضى أو المعتلين حسب تسمية الياس الغضبان الذى كتب مقالا طويلا فى هذا الشأن، يحدث بالخديعة «فالأهل يسعون فى تزويج بنيهم مع إخفائهم الأمراض الوبيلة التى يكونون بها، وذلك أنهم يزفون الفتاة المبتلاة بالداء الخنازيرى أو السوائل البيضاء أو بالداء العصبى إلى الشاب وهو يظنها سليمة. وكذلك يزوجون الشاب المصروع أو العنين أو المبتلى بالسفلس بفتاة كانت ترفض الاقتران به لو علمت بالعلة الخفية».

ويطلب الغضبان من الأهالى الذين يلاحظون نقصا موروثا أو مكتسبا فى تركيب بنيهم أو بناتهم «أن يشاوروا طبيبا حاذقا قبل تزويجهم ليوضح لهم النتائج التى ربما تحصل لهم من جراء زواجهم، وهذا خير لهم ولنسلهم من بعدهم واجتناب لجملة مكاره مؤلمة سوف تنتابهم وتحل بهم».

وينتهى بعد عرض طويل إلى مطالبة الجمعية التشريعية أن تسن قانونا مقتضاه «ألا يسوغ إعطاء رخصة لأى شخص يريد الزواج إلا إذا قدم كل من الطالبين، الخاطب والمخطوبة، إلى السلطة المنوط بها عقد الزواج شهادة من طبيب معتمد يشهد بها ويعترف بأقصى تحرياته بأن الطالبين غير مصابين بداء السل الرئوى أو الصرع أو الجنون أو البلاهة أو نحوها من الأمراض الوراثية»، ويلفت النظر أن هذا المطلب ظل قائما حتى الآن، ولكنه بقى دون تنفيذ حتى بعد نحو تسعين عاما من مطالبة الغضبان به !

زواج الفقراء طرحه القارىء مصطفى بهجت هدايت «الخبير بالمنصورة»،

وكان له اقتراح غريب، فقد ساق قصة صانع بسيط له زوجتان، يكسب الكاد ما يكفى أوده وأود أولاده «أصيب بمرض أعدمه البصر وأصبح يتسول وقد رزق أربع بنات يتراوح سنهن بين السادسة والثامنة وولدان يناهز كل منهما الخمس سنين .. فمن أين لهذا الفقير الأعمى أن يربى جميع هؤلاء الأولاد إلا أن يقودهم إلى الشحاذة ويتركهم وشأنهم يشبون على الرذيلة وفساد الطبع والخلق».

وينتهى من ذلك إلى تقديم اقتراحه على شكل التماس إلى ولى الأمر والشرع «بسن لائحة توجب تحذير زواج الفقراء سعيا وراء إماتة الشرور واستتباب الأمن العام» !

ومع أن الأهرام نشرت مقال «الخبير بالمنصورة» بعددها الصادر فى ٧ يوليو عام ١٩١٤ غير أنها علقت على طلبه بأنه مستحيل التنفيذ «ولكن المغفور له الشيخ محمد عبده كان يرى أن يبحث المأذون عن طالب الزواج فإذا كان فقيرا ولا يستطيع أن يكفى زوجين لا يعقد له للزوجة الثانية» !

زواج الموظفين شكل موضوع عريضة قدمها أحد المواطنين إلى الجمعية التشريعية واقترح فيها أن «تكره الحكومة موظفيها على الزواج فلا تقبل فى خدمتها شخصا غير متزوج»، وتعترف الأهرام أن بعض الصحف قد قابلت هذا الاقتراح بالهزؤ والسخرية والمزاح غير أنها قررت أن تقابله «بإنعام النظر مليا طويلا متسائلين أولا لماذا اقترح هذا الاقتراح؟؟ وثانيا: هل للاقتراح وجه وجيه أم لا؟؟».

السبب فى رأى الأهرام الذى دفع صاحب الاقتراح إلى تقديمه أنه رأى أن «الموظفين الذين لا يعولون عائلة قد يندفع فريق منهم وراء شهوته فيفسد على الناس أخلاقهم لأنهم يحذون حذوه. وقد يفسد أمره على نفسه فيطلق جماحها ويفلتها من كل قيد».

سبب آخر ساقته جريدتنا أن الموظف غير المتزوج «إذا أتم عمله فى ديوانه أو فى مصلحته أصبح حرا يفعل ما يشاء فهو يجلس فى القهوات ويجرع الكؤوس ويسكر ويثمل، وهو قد يتورط إلى أكثر من ذلك غير حاسب لحق منصبه ووظيفته حسابا عليه، ولطالما سمعنا بتهتك كثيرين من الموظفين ولم نسمع بأن الحكومة شددت عليهم ليكونوا مثال التأدب وحسن الأخلاق».

خرجت الأهرام من كل ذلك إلى أن الاقتراح المقدم إلى الجمعية التشريعية ليس عبثا ولا مزاحا بل أنه نعم الاقتراح وحث جريدتنا الجمعية على الأخذ به لأن على الحكومة أن تسهر «على آداب موظفيها ومنعهم عن الأمور الشائنة المخجلة التى يرتكبونها. فليس المحرم ما نص على العقاب عنه فى قانون العقوبات فقط بل المحرم على الناس أجمعين وعلى الموظفين على وجه التخصيص ما لا يقبله الأدب وما لا ترضاه الحشمة ولا تسمح به الكرامة»، وكأن جريدتنا كانت تؤكد بذلك فكرة أن «الزواج تهذيب وإصلاح»، وهى فكرة نعتقد أن الكثيرين لازالوا يأخذون بها حتى يومنا هذا!

الفصل السادس

سقوط عصر الحريم !

تحت عنوان «الزواج القهرى» كتبت آنسة وقعت باسم «فتاة عذراء» رسالة للأهرام نشرتها الجريدة مست مواجع المصريين، حتى أنها كانت بداية لإعادة فتح الملف الذى لا يغلق إلا ليفتح مرة أخرى .. ملف الحب والزواج !

مضمون الرسالة أنه خلال الأسبوع المنصرم «تم عقد قران قهرى فى إحدى عائلات الصعيد الكبيرة لفتاة من العائلة على ابن عمها الذى لا تميل إليه، وقد أبت العائلة إلا أن تصوب السهام إلى قلب تلك الفتاة وذلك بإرغامها على قبول هذا الشاب شريكا لها فى حياتها رغم إرادتها، فجاوبتهم بدموع الألم» !

وإلى هنا والأمر عادى، بالنظر إلى ظروف العصر، ولمكان الواقعة -الصعيد- بكل ما اشتهر به من روح محافظة، وبكل ما وفرته التقاليد للأب من سطوة تمكنه أن «يحل ويربط» فى شئون أبنائه عموما والإناث منهم على وجه الخصوص، وبكل ما حكمت به الأعراف من أن مخالفة الأب فى مديريات الصعيد «والجوانى» نظر إليها على أنها خروج عن الأدب الذى قد ينزل أقصى العقوبة بالفتاة التى تجرؤ على ذلك.

غير أن ما لم يكن عاديا أن تلك الفتاة قد تجرأت وشكت إلى «الفتاة العذراء» التى بادرت بالكتابة للأهرام تستنفر الرأى العام ومملكة الجنس اللطيف، على حد تعبيرها، ممنية النفس بأن تلقى كلمتها «آذانا صاغية وقلوبا واعية، وباعتبارى فتاة من واجبى النظر إلى مثل هذه الحوادث أطالب حضرات الكاتبات والكتاب أن يدلوا بآرائهم فى هذا الموضوع وينتصروا للحق حتى لا تكون مملكة الجنس اللطيف عرضة لمثل هذه العواصف التى تزعزع أركانها وتهضم حقوق شعبها، فتخيم سحب الشقاء على ربوع الفتيات التى تقذف بهن القسوة العائلية إلى مهاوى التعاسة» !

وقبل المضى قدما فى عرض أوراق الملف ممثلة فى المقالات والتعليقات التى استمرت شهورا عديدة بعد تلك الرسالة الموحية، نرى تسجيل بعض الملاحظات التاريخية :

١- مع أن صاحبة الرسالة آثرت أن تخفى إسمها الحقيقى، ربما خوفا على الفتاة التى تعرضت للزواج القهرى، فإننا نلاحظ أن عديدا من السيدات شاركن فى الكتابة إلى الأهرام، وهن فى هذا لم تساورهن مثل تلك المخاوف، فقد أبين ترك الميدان خاليا للرجال.

وإذا كان ثمة تفسير لذلك فهو أن قاعدة عريضة من الفتيات قد ولجن باب الحياة العامة، خاصة على ضوء ما جرى خلال السنوات الفاصلة بين ثورة ١٩١٩ وبين إعادة فتح الملف، فقد عرفت تلك الفترة تغييرات عميقة فى وضعية المرأة فى البلاد، بدءا من الاشتراك فى مظاهرات الثورة، ومرورا بتشكيل الجمعيات النسائية، فى مقدمتها «الاتحاد النسائى» الذى ارتبط بإسم السيدة هدى شعراوى، ووصولا إلى الخروج إلى الآفاق العالمية حين شارك وفد نسائى مصرى فى مؤتمر النساء الدولى الذى انعقد فى العاصمة الإيطالية فى مايو عام ١٩٢٣ .

٢- إن هذه التطورات كانت بمثابة الإعلان عن سقوط «عصر الحريم» حين كان الفصل صارما بين المجتمع الرجالى والمجتمع النسائى، فالمعلوم أن هذا النظام الذى ظل سائدا فى مصر خلال العصر العثمانى قد تركز بين جماعات الأتراك والمماليك من الحكام، وأبناء الطبقة الوسطى من التجار وكبار الحرفيين من المصريين، والمعلوم أيضا أن الخريطة الاجتماعية فى مصر عرفت تغييرات عميقة فاختفت بعض معالمها وبرزت معالم أخرى، وهى التغييرات التى تطلب حدوثها زهاء قرن وربع ..

الطبقة التركية التى حكمت مصر قبل ذلك ضعفت كثيرا، أو على الأقل

شحبت تركيتها، خاصة بعد أن تصاهرت مع المصريين، الأمر الذى شاع بعد تكون طبقة الأعيان والوجهاء، من كبار ومتوسطى الملاك من هؤلاء، والذين صاهروا الحكام المنحدرين من أصول تركية، ويبقى زواج سعد زغلول بك، ابن عمدة إبيانة من الغربية، بالسيدة صفية مصطفى فهمى أشهر رئيس لوزراء مصر قبل الحرب العالمية الأولى، نموذجا مثاليا لهذا التصاهر، وما نعلمه أن نتيجته أن أصبحت السيدة التركية الأصل والنشأة «أماً للمصريين»، بينما لم ينصهر سعد فى الجماعة التركية فى مصر المحروسة !

بالمقابل، نمت طبقة وسطى مصرية جديدة، غير طبقة تجار الطوائف ورؤساء الحرف التى كانت موجودة من قبل، والتى أصبحت جماعات الأفندية بمثابة عمودها الفقرى، فيما حدث نتيجة للتغير الكمى فى التعليم الذى كان يخرج موجات تلو موجات من هؤلاء، حتى أننا لم نصل إلى نهاية القرن التاسع عشر إلا وكانت قوى عديدة دخلت ميدان التعليم الحديث؛ جمعيات أهلية مثل الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية الخيرية القبطية؛ الإرساليات التبشيرية التى فتحت أبواب مدارسها واسعة للمصريين سواء كانوا من الأغنياء، أو الفقراء، مدارس الجاليات الأجنبية التى سمحت بالتحاق المصريين بها، بل وصل الأمر إلى أن بعض الأفراد أقاموا مدارس بأسمائهم وانخرطوا فى نظام التعليم الحكومى وسعوا إلى أن تشرف وزارة المعارف على تلك المدارس لتضفى عليها قدرا من المكانة.

وكان للفتيات نصيب معقول من هذه النهضة التعليمية، فيما بدا فى بعض المدارس الحكومية، فضلا عن المدارس الأجنبية، أضف إلى ذلك بعض المدارس الأهلية التى خصصت لتعليم البنات، وبهذا خرجت البنات من «خدورهن» الذى فرضه عليهن عصر الحريم.

وإذا كان ثمة ما يستحق التسجيل فى هذه المناسبة فهو أن الدور القديمة

التى كان يخصص الطابق العلوى فيها للحريم تحت اسم «الحرملك» والسفلى للرجال تحت اسم «السلاملك» قد تغير تصميمها، وأخذت تسمية الحرملك تختفى مع الأيام .. صحيح أن استقبال الضيوف من الرجال ظل مخصصا له قاعة بعينها، وفى الدور الأرضى فى الغالب، إلا أنه كان من حق سيدة الدار أيضا أن تستقبل ضيفاتها فى نفس القاعة، بمعنى آخر أن ذلك الفصل الصارم بين الرجال والنساء قد وهن كثيرا !

٣- كان من المنطقى أن يترتب على كل ذلك أن المصرية من بنات الطبقة الوسطى فى أوائل القرن العشرين اختلفت كثيرا عن سالفتها فى بداية القرن السابق، فقد شاعت مع كل التغييرات مفاهيم جديدة يأتى فى مقدمتها حق المرأة فى اختيار شريك حياتها، وهو الأمر الذى لو كانت قد طالبت به إحداهن قبل ذلك لأوردها موارد التهلكة.

وفى هذا الجو المختلف نستطيع أن نتفهم بقية أوراق ملف «الحب والزواج» الذى فتحته «الفتاة العذراء» فى الأهرام فى شتاء عام ١٩٢٣ - ١٩٢٤ ..

* * *

بدأت الحوارات التى عرفت طريقها إلى صفحات الأهرام برسالتين، إحداهما من قارئة إسمها سيدة توفيق، والثانية من قارىء إسمه عبد الله حسين ..

الأولى التى وصفت نفسها «بخريجة جامعة واشنطن بأمريكا» حفلت رسالتها بكل أسباب الاستهجان، وهو أمر طبيعى على ضوء معايشتها للمجتمع فى العالم الجديد وما درج عليه من حريات تتمتع بها المرأة، وهو الاستهجان الذى عبرت عنه فى أكثر من موقع من رسالتها .. كأن تصف ما

جرى للفتاة الصعيدية بأنه يمثل إحدى العادات المنحطة «والتى تتدهور بها سعادة الأسرات، ومتى تدهورت الأسرات تدهور كل نظام وكل عمل وضعفت التربية»، وكأن تتفرع فى موقف آخر بأن كثيرا من الأسر سوف تقع فى المتاعب بسبب نقص التربية، والحل فى رأيها: أن يوجه من يدعون لنهضة التعليم الرجال والنساء للعمل على درء المفاسد «والتى هى عائق وعار فى سبيل أمة ناهضة تطلب الاصطفاف مع الأمم الراقية» !

الثانى كان أكثر محافظة، الأمر الذى نتبينه من حقيقتين: أولاهما: أنه ميز بين الفتاة الصعيدية التى وصفها «بالجاهلة المحجبة» التى رأى أنها لا تملك الإرادة الصحيحة للتفريق بين الصالح والطالح، وبين قرينتها المتعلمة التى رأى أن الواجب على الولى عليها من أسرتها أن يستشيرها ويأخذ رأيها «وكل ما له عندها أو ما يجب عليه نحوها أن يسديها النصيحة منه ومن الأقربين» أما إذا اختلف الرأى بينهما فيرجأ القرار ولا يؤخذ برأى الفتاة.

الثانى: أنه رفض أن يكون الحب سببا للزواج، فعلى حد رأيه أنه كثيرا «ما يقوم الحب على شهوة وقتية فلا يلبث الزوجان بعد قليل حتى يجدا الفارق الحقيقى بين الزوج والزوجة من جهة الجمال أو العلم أو السن أو المال أو الأسرة أو التربية أو اللون أو الأخلاق والشرف أو بعض هذا أو كله معا. والحب الصحيح هو ما كان مصدره التمازج فى كل ما قدمنا أو بعضه على الأقل».

وتتدخل فى الجدال الدائر «زكية محمد- مدرس بالجامعة الشرقية بالحسين»، لتطرح موضوعا طريفا مؤداه الطريقة التى يفهم من خلالها ولى الأمر ما إذا كانت «الفتاة المستحية» موافقة أو رافضة «للعريس المتقدم»..

وتقول أن رد مثل هذه الفتاة فى حالة القبول يكون بأحد طريقين، فإما

السكوت عن الرد، على اعتبار أن السكوت علامة الرضا، وإما تضحك غير مستهزئة «أو تتبسم أو تبكى بغير صوت»، أما الرفض فيكون بالبكاء بصوت عال أو إذا ضحكت مستهزئة «وضحك الاستهزاء لا يخفى على من يحضره من الأولياء والأقارب، لأن الضحك إنما جعل إذنا لدلالته على الرضا فإن لم يدل على الرضا لم يكن إذنا» !

ولم يكن منطقيا ألا يدلى رجال الدين برأيهم فى مثل هذا الجدل الدائر، وهو ما فعله عبد الباقى عبد الرحمن «من علماء مدرسة القضاء الشرعى»، فى المقال الطويل الذى نشرته له الأهرام تحت عنوان «الزواج القهرى والشريعة الإسلامية».

وقد كان الرجل محددا عندما أعلن فى مستهل مقاله أنه سوف يجيب على ثلاثة أسئلة متعلقة بالموضوع المطروح..

الأول: هل للحرة البالغة العاقلة أن تزوج نفسها؟ وجاءت الإجابة ملتبسة لما شابها من اختلاف الأئمة .. أبو حنيفة رأى الجواز «بدون الحاجة إلى رضا ولى الأمر أو إجازته سواء زوجت نفسها من كفء أو من غيره»، غير أن مالك والشافعى اختلفا معه فى ذلك حيث أن نزق الشباب «يجعلهن سريعات الاغترار، فلا يملكن تزويج أنفسهن، بل الذى يملكه ويملك إجبارهن عليه هو الولى».

الثانى: هل لأحد أن يكره البالغة العاقلة على التزوج؟ ومرة أخرى يشير إلى أن الفقهاء قد اختلفوا فى ذلك، فالشافعى يحرمها من هذا الحق «ومنشأ الخلاف أن هذا الإمام جعل الأصل الذى بنيت عليه ولاية الجبر هو البكارة، ولجهل البكر بمصالح النكاح جعله للوالى جبرا عنها»، أما الحنفية فإنهم «جعلوا الأصل الذى بنيت عليه ولاية الجبر هو الصغر فى الصغير والصغيرة والجنون فى الكبير والكبيرة».

وجاء السؤال الثالث حول حكم الشريعة فى زواج من أكرهت، وكانت الإجابة قطعية بأنه «ليس لأحد -كائنا من كان- أن يكره بالغة عاقلة على التزوج، فإن فعل ذلك كان النكاح موقوفا على إجازتها عندنا، فإن ردته بطل وإن أجازته نفذ. أما إذا سكتت عند استئذان وليها كان ذلك إذنا منها ولو كانت كارهة» !

وبينما يحتدم الجدل على هذا النحو وصل الأهرام خبر من طنطا مفاده أن شابة قد آثرت الانتحار بجرعة من «حامض الفنيك» بعد أن حاول أبوها أن يزوجها قهرا من ابن عمها، ويبعث أحد القراء من عاصمة الغربية فى هذه المناسبة رسالة مؤثرة ينعى فيها شهيدة الزواج القهرى وكيف أن أباها اصدر حكمه القاسى «مستمدا من الحقوق الأبوية سلطة استبدادية لا تتفق مع الشرع ولا تسير مع القانون»، ويطالب بالضرب على أيدى مثل هؤلاء الآباء القساة القلوب المجردين من الشفقة والبحث عن سبيل لتأديبهم ووقف أعمالهم الخطرة النتائج إلى حد تنتهى عنده هذه الأدوار المحزنة والروايات المخجلة» !

على أى الأحوال لم يمض وقت طويل إلا وتحول الموضوع من قضية الزواج القهرى إلى العمل على إصلاح نظام الزواج فى مصر على نحو عام ..

* * *

القارىء «شفيق أبو هندى من جامعة مانشستر» كان أول من فتح الباب الجديد فى رسالة له نشرتها الأهرام تحت عنوان «حاجتنا إلى الإصلاح»، والتى طرح فيها مجموعة من الآراء الجريئة، استمدها من مشاهداته فى المجتمع الذى كان يتعلم فى إحدى جامعاته، فيما عبر عنه فى بداية رسالته بقوله أنه «يعوزنا أن نفكر مليا فى كل أمورنا بفكر حر وبعقل غير مقيد وبضمير صالح غير مغلول» !

فأولا لم ير شفيق أفندى ثمة ما يمنع من أن يلتقى الخطيبان قبل الزواج، ويسأل القارىء: «إذا كنت أنت لم تقابل خطيبتك قبل الاقتران فلا أدرى كيف ترجو أن تتلاءم الطباع»، وهو ينثنى من ذلك ليعرب عن رأيه أن «السفور لا يضيع العفاف بل هو يزيد القوة الأخلاقية، والحجاب يضعفها فى كل منهما» ، ويذهب بعيدا فى ذلك إلى حد القول أن «كل بنات وأولاد الغرب أعف منا بمراحل» !

يخرج من ذلك إلى الدعوة إلى المجتمع المختلط، وهو لا يرى بأسا مع هذا أن يختار الشاب زوجته من قاعات المراقص ويتمنى أن «يكون عندنا الروح الفاضلة التى يرقصون بها فهنا يظهر منتهى العفاف وليس فى الحجاب المحط للإنسانية وللأخلاق .. إن هذه المراقص ليست كما نظن من الخلاعة بل أنها تقام فى الجامعات وفى بعض الأحيان فى الأماكن المقدسة» !

وينهى شفيق أفندى رسالته بإدانة ما يتمتع به الرجل الشرقى من حرية مطلقة فى الطلاق ويخاطبه بقوله: هل من الرحمة أن تطلق زوجتك بلا جريمة وييتم الابن من أمه بلا سبب إلا أنك أردته؟، أتسميه حكمة أو رحمة أو حقا إذا أحضرت زوجتك رجلا غيرك فى المنزل وتزوجته وأنت فى نفس المنزل!؟».

وكان من الطبيعى أن تقيم الرسالة الجريئة التى نشرتها الأهرام لطالب جامعة مانشستر الدنيا ولا تقعدها، الأمر الذى نلاحظه من كثرة كتابات القراء بامتداد ربيع عام ١٩٢٥، والذى ترددت فيه أسماء عديدة كان من أهمها طالب فى مدرسة الطب إسمه محمود بهجت الترتنجى، وقارئة فضلت أن توقع بإسم «سيدة متألمة مظلومة» !

بعد أربعة أيام فقط من نشر رسالة شفيق أبو هندى جاءت أولى رسائل الترتنجى ليختلف مع طالب مانشستر فى قوله أن حفظ المرأة فى منزلها

يمثل استعبادا لها، بل يرى أن فى ذلك «حفظ لكرامتها وصون لعفتها وليس لجسمها النحيف وعقلها الضعيف أن يتحملا ما يئن منه الرجال».

ويتحفظ التونتجى على التعميم الذى عمد إليه زميله الطالب فى إنجلترا فى قضية الطلاق، وكان رأيه أن «هذا الجرم الفظيع لا يقوم به إلا جهلة القوم وفاسدو الأخلاق ممن لا ضمير لهم ولا نفس أبية تردعهم، فليهدا روع سيدى وليهنأ بالا فسوف يأتى لمصر يوم يتعلم فيه الجاهل ويصلح فيه حال الفاسد» !

ويتوقف طالب الطب طويلا عند الدعوة التى أطلقها شفيق أبو هندى بأن يتم التعارف بين الشبان والشابات فى المراقص، ومع أنه يسلم بأن الرقص نفسه قد يكون فنا جميلا إذا روعيت فيه الآداب العامة والبعد عن الدنايا، وهو ما يحدث فى تلك البلاد، أما فى خارجها، ويقصد طبعا مصر «فكم فيه من مخجلات» ويخاطب زميله بقوله فى هذه المناسبة: «حدثنى بالله كيف يكون حال الشاب إذا ما ملئت بطنه بأصناف الخمور فضاع عقله وتسلط عليه هواه فوجد بين يديه غادة هيفاء قد تحلت بأحسن ما لديها وكشفت له عن معظم جسمها (سواريه يافندم) فخاصرها وخاصرته وأترك لك الباقى فأنت به أدرى» !

وبينما اختلف «التونتجى» مع «أبو هندى» على هذا النحو، فقد اتفقت «السيدة المتألمة المظلومة» معه على نحو كامل حتى أنها نشرت مقالها على شكل رسالة موجهة إليه، ورأت فى قوله «بلسما شافيا لذلك القلب الذى طالما تفتت من ظلم وإهانة»، وخاطبته بقولها أنها بعد طول يأس أفاقت من غفلتها «وأيقنت أن عندنا رجالا عقلاء يدافعون عن حقوق المرأة ويأخذون بيد المظلومات».

وعلى نفس الطريقة التى ينشر بها الأستاذ عبد الوهاب مطاوع رسائل

قرائه فى بريد الجمعة أخذت تروى قصتها: «نحن من عائلة متوسطة الحال ربيت بين والد حسن الأخلاق سمح النفس ووالدة لها إلمام كبير بشئون المنزل تعلمت اللغة الفرنسية حتى أحسنت تعليمها، وأكملت تعليم العربية والتدبير المنزلى بالمنزل وما أكملت الثامنة عشرة حتى داهمنى القدر بمن بدل السعادة إلى شقاء لازمنى طول الحياة» !

أما الذى داهمها به القدر فقد كان شابا من أفراد العائلة «تبدو عليه سيماء الأدب الجم والصفات الحميدة، له والدة عجوز (صالحة) تقضى معظم وقتها فى العبادة بيدها سبحتها التى تلازمها دائما»، وبعد تفاصيل طويلة عن أيام الهناء الأولى التى عاشتها أخذت تعدد ما أصبحت تعانيه من «العجوز الصالحة» وأنها التى كانت لا تسمع إلا حلو الكلام «أصبحت اليوم لا أسمع إلا مره خصوصا تلك الجملة التى كانت ترددها دائما وهى أن السيدة المتزوجة ليست إلا حذاء فى رجل الرجل يخلعها متى يشاء ويبدلها بأخرى جديدة» !

وتزداد حدة الدراما فى رسالة «السيدة المتألمة المظلومة» عندما يتضح منها أنها كانت من أسرة ميسورة على غير حال أسرة زوجها، وأن الأخير كان يطمع أن تأتى من أبيها بما يكفل له ولأمه رغد العيش، وأنها عندما لم تفعل ذلك سدرا فى إهانتها واستعبادها بدون ذنب، وتنتهى القصة المأسوية بحدوث الانفصال «تاركا لى طفلا صغيرا ليكمل البقية الباقية من حياتى بسؤاله من وقت لآخر عن والده ولا يرى إلا كل بضعة أشهر رجلا يدعى أنه والده ويبكى بكاء مرا طالبا والده» !

ولأن التوتنجى أخذ على عاتقه الدفاع عن التقاليد السائدة، ولأنه قد عزَّ عليه أن يجد شفيق أبو هندى من يناصره، فقد أعد ردا طويلا على السيدة «المتألمة المظلومة»، عزا فيه أغلب ما وصلت إليه إلى سوء التقدير، فهو قد

رأى أنه لا يكفى أن تقدم فتاة على الزواج من شاب لمجرد أنها قد توسمت فيه أنه «من خيرة الشبان وأن له والدة عجوز من الصالحات» (!)، وينحى عليها باللائمة أنها لم تقدر أن مثل تلك الوالدة بحكم سنها «يقل إدراكها أو كما يقول العوام (تخرف) ووجب على الإنسان مسايرة ذلك كما يساير المرء طفله»، ويتهمها بأنها ألقت بتلك النظرية وراء ظهرها وحاسبت العجوز على كل ما تأتيه من صغيرة وكبيرة !

أخذ التوتنجى أيضا على السيدة المتألمة أنها لم تراع الفوارق الاجتماعية بينها وبين أسرة خطيبها عندما أقدمت على الزواج مما ظهر من قولها أنه كان فقيرا أو أقل ثروة منها «وأظن أنه ليس من المستحسن أن تقترن الغنية برجل فقير أو الغنى بمعدمة فيقع بينهما من الخلاف ما أنت به أدرى» !

غير أنه لا يملك فى النهاية سوى أن يواسى صاحبة الرسالة ويصف زوجها بالوحش، وأن الرجال يبرؤون منه إلى يوم الدين «ولتثق أن للرجال مع خشونتهم قلوبا طاهرة وضمائر حية وأنهم يحترمون النساء، ويبجلونهن»، وهى نتيجة لا تتفق مع المقدمات !

ويتعاطف قارىء آخر وقع بحروف إسمه الأولى (م.ح) مع السيدة المتألمة المظلومة وإن كان يفتح فى نفس الوقت صفحة أخرى من الملف هى تلك الخاصة بالرجل المزواج، ويزعم أن هؤلاء قد انتشروا كثيرا فى ذلك الزمان، ويتحدث عن رجل عرفه «اتخذ من إباحة الزواج فى الدين الإسلامى سبيلا لتبرير غاياته الشهوانية فقد قيل عنه أنه تزوج من نحو الخمسين أو السبعين زوجة استعمل معهن كل حيله الشيطانية ولاتزال المحاكم الشرعية مليئة بقضاياه العجيبة المدهشة .. ولو سطرت كل ما سمعته عن هذا الطاغية لكتبت عنه مجلدا ضخما، ولكن فقط ذكرت ذلك على سبيل إظهار أهم أدوائنا الاجتماعية لتفسح لنا جريدة الأهرام (أم الجرائد) مجالا

للكتاب الاجتماعيين».

ولم تجد السيدة «المتألمة المظلومة» مندوحة من أن تعود للكتابة مفندة ما جاء في رد التوتنجي، وإن خلصت في رسالتها تلك التي نشرتها الأهرام إلى حصر أسباب النزاعات الزوجية في ثلاثة: عدم كفاية البحث والتحري عن الزوج، انتشار البدعة السيئة ببحث الزوج عن زوجة غنية تنفق عليه بصرف النظر عن أي اعتبار آخر، جمع الزوجة مع أهل الزوج «وهو ما يمكن تلافيه لجعل كل منهما في معيشة خاصة متى كان الزوج قادرا على ذلك».

انحاز قارئ، آخر إسمه توما مقار إلى المتألمة المظلومة ورأى أن التوتنجي قد تجنى عليها كثيرا، فلومها أنها لم تحسن الاختيار ليس ذنبها في مثل هذا المجتمع الذي يحرم فيه على الفتاة «حسب عوائدنا الشرقية الاختلاط والمعاشرة، ففتاة هذا شأنها لهي أسيرة غيرها»، ثم أنه أخذ على طالب الطب الحكم الذي أصدره بأنه لا يجب أن تقترن الغنية برجل فقير أو الغني بمعدمة، ويسأله: «من أين حكمت على هذه البائسة بأنها خالفت قاعدتك هذه الأن زوجها عديم الشعور والإحساس .. أليس من الجائز أن يكون هذا الزوج طماعا جشعا نهما يطمع في مال أبيها، وهو ما يفهم من كلامها» !

ويبدو أن محمود بهجت التوتنجي الطالب بمدرسة الطب قد وجد أن النقاش قد طال أكثر مما تحتمل ظروفه، فكتب تعقيبا قصيرا في أهرام يوم الجمعة ٢٠ مايو يعتذر فيه عن الانسحاب مؤقتا من الميدان «فقد حل موعد اختبارنا بالمدرسة فالوداع أيها السادة» وحسنا فعل !

القسم الثانى

التحـــــــرر



صوت إنتخابى

الفصل السابع

معركة قاسم أمين

المعلومات وفيرة عن قاسم أمين صاحب الكتابين الشهيرين .. تحرير المرأة الصادر عام ١٨٩٩ والمرأة الجديدة الصادر بعد نحو عامين، فقد أثار هذان العملان جدلا واسعا دخل به صاحبهما التاريخ من أوسع أبوابه، واكتسب لقبه الشهير .. محرر المرأة.

رغم ذلك تبقى أمور خافية عن الكتابين وصاحبهما كشفت عنها الأهرام فى جملة من أعدادها التى عاصرت الجدل الذى حمى وطيسه وتحول فى وقت إلى معركة فكرية حقيقية من تلك المعارك القليلة التى عرفها التاريخ المصرى.

وتشتعل المعارك الفكرية عادة فى مراحل الانتقال التاريخى من عصر إلى آخر، فبينما ظهر أول عملى قاسم أمين وقت أن كان القرن التاسع عشر يلفظ أنفاسه الأخيرة، صدر عمله الثانى فى لحظات الصرخات الأولى للقرن العشرين الوليد، غير أن ذلك وحده لا ينم عن روح الانتقال، فتلك المراحل تمتد لأطول كثيرا من عامين أو ثلاثة، فالتغيير، خاصة فى الجوانب الاجتماعية والفكرية، يستغرق سنوات طويلة تشمل عديدا من العقود وأحيانا من القرون مما يؤكده أن بعضا من أفكار قاسم أمين لا زالت محل لجاج حتى يومنا هذا.

ويبقى واهما من يتصور أن فكرة نبتت فى عقل رجل، مهما كانت درجة ثقافته، ومهما بلغ حسن نواياه، يمكن أن تغير من قيم اجتماعية سائدة، أو قناعات فكرية قائمة، دون أن يكون لهذه الفكرة مقدمات طويلة..

اجتماعيا: وفرت المتغيرات التى عرفتها مصر خلال نصف القرن السابق على ظهور أعمال أمين البيئة المناسبة لقبول أفكاره، فقد تآكلت قوى

اجتماعية قديمة على رأسها الأرستقراطية التركية التى كرست نظام الحريم، وظهر محلها شرائح جديدة من أبناء الطبقة الوسطى المصرية، خاصة من جماعات الأفندية، سواء من الذين عملوا فى إدارات الحكومة المركزية التى نمت نموا كبيرا خلال تلك الحقبة، أو من الذين اشتغلوا بالمهن الحرة، وفى طليعتهم الحقوقيون، وشكلوا بيئة قادرة على فهم التغيير وقبوله، ولو فى نطاق محدود فى البداية، فهذا شأن أى تغيير عرفته البشرية.

وتكشف متابعة سيرة قاسم أمين عن مدى انتمائه لهذه البيئة، صحيح أنه انحدر من أصول تركية، وليست كردية كما هو شائع، غير أن جملة من اختلط معهم وتأثر بهم وأثر فيهم كانوا من المصريين، خصوصا من الحقوقيين .. سعد زغلول، إبراهيم الهلباوى، أحمد لطفى السيد، أحمد فتحى زغلول.

ونتوقف هنيهة عند الأصل الذى انحدر منه الرجل، فقد شهدت مصر خلال القرن التاسع عشر ظاهرة تمصر العناصر التركية على نطاق واسع، فقد امتزج هؤلاء بسائر المصريين حتى أنه لم يمض وقت طويل حتى أصبحت تلك الأصول مجرد ذكرى فى القلوب أو بياض فى لون البشرة !

ونرى أن أبناء هذه الفئة، ومنهم رجلنا، كانوا أكثر جرأة فى المطالبة بالتغيير، يشجعهم على ذلك مكانتهم الاجتماعية بعد أن تحولوا فى الغالب إلى شريحة كبار ومتوسطى ملاك الأراضى الزراعية، وثقافة عالية تجمع أبناؤهم فى تحصيلها من خلال موقعهم الاجتماعى، وكان منهم «عزتلو قاسم أمين بك» !

فالرجل ورث مساحات واسعة من الأراضى الزراعية فى البحيرة، ثم أنه بعد أن أتم دراسته القانونية فى القاهرة قصد إلى مونبلييه لاستكمالها، حيث أتيحت له فرصة الاحتكاك بالمجتمع الفرنسى ووقع فى غرام إحدى

بناته (!)، وأخيرا فإنه لما عاد إلى مصر ارتقى سريعا سلم المناصب القضائية وأصبح أحد كبار المستشارين حينما أقدم على تأليف كتابيه الشهيرين.

اجتماعيا أيضا: أدت زيادة الوجود الأوربى والاحتكاك الدائم بينه وبين المصريين إلى عقد مقارنات لم تكن قائمة بهذه الحدة من قبل، ومع أن الغالبية من المصريين قد استهجنت عديدا من سلوكيات هؤلاء الوافدين، وظلت تسيطر عليها فكرة أن الحضارة الأوربية إلى زوال نتيجة لتلك السلوكيات، فإن آخرين قد استحسنوا جانبا منها على الأقل، خاصة ما تعلق بالقدر من الحرية الذى تمتعت به الأوربيات، وكان منهم «محرر المرأة»!

أخيرا: فإن تعليم البنات الذى بدأ بعد إنشاء مدرسة السيوفية فى عصر إسماعيل قد أنعش الآمال فى اتساع نطاقه، ومع أن التجربة الحكومية فى هذا النطاق ظلت محدودة، غير أن اتساعها على أيدى الجمعيات الإرسالية، خاصة الفرنسية والأمريكية، ومن خلال مبادرات خاصة قام بها بعض «الخواتين الفاضلات» قد أثر تأثيرا ملحوظا.

فكريا: كان لابد أن تترك تيارات الأفكار الجديدة التى هبت على المجتمع المصرى خلال نفس الحقبة بصمات واضحة مما انعكس على كتابات كبار المفكرين الذين ظهروا على مسرح العقل المصرى خلال تلك الحقبة.

أهم تلك الكتابات -فى رأينا- «المرشد الأمين للبنات والبنين» الذى وضعه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى بإيعاز من الخديوى إسماعيل بمناسبة افتتاح أول مدرسة لتعليم البنات، مما يمكن اعتباره الأساس الذى أقام عليه قاسم أمين صرحيه الكبيرين.

صحيح أن رفاعة لم يصل فى كتابه إلى درجة المطالبة برفع الحجاب،

فيما فعله قاسم أمين وأكسب أعماله شهرتها، غير أنه دعا إلى صرف الهمة «لتعليم البنات والصبيان معا ليمكن التعليم المرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها»، إلا أنه تعرض فى الجوانب الأخرى لأغلب ما عالجه قاسم بك.

ومع ذلك كان الطهطاوى أول من شكك فى العلاقة بين الملابس، مكشوفة أو مستورة على حد تعبيره، وبين العفة فيما جاء فى قوله: «وملخص ذلك أن وقوع اللخبطة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن بل منشأ ذلك التربية الخسيسة» !

وتأسيسا على كل تلك المقدمات ظهر الكتابان، مما ترتب عليه معركة فكرية أعطت لأعمال الرجل مكانة خاصة فى التاريخ المصرى ..

* * *

فى المعركة الصحفية التى واكبت ظهور عملى «عزتلو قاسم أمين بك» انصرفت الأنظار إلى جريدتى المؤيد واللواء التى ظهرت بعد شهور قليلة من صدور الكتاب الأول، وانبرت بعد صدوره بقليل فى شن حملة على الرجل وأفكاره.

لعل انصراف الأنظار إلى المؤيد مصدره أن «محرر المرأة» ظل يعبر عن آرائه العامة خلال العامين السابقين على صدور مؤلفيه على صفحات تلك الجريدة، حتى أن الباحثين يعدون تسعة عشر مقالا سطرها الرجل فى صحيفة الشيخ على يوسف حول المال وأسس التربية السليمة، وأخيرا عن موظفى الميرى وأسماها «أخلاق ومواعظ» !

أما انصراف الأنظار إلى اللواء فقد نتج عن أنها الجريدة التى كان يحررها أشهر الزعماء السياسيين، مصطفى كامل، وما استتبع ذلك من

تسليم أنها كانت الأكثر تعبيرا عن الحركة الوطنية.

وقد اتخذت الأخيرة موقفا شديد العداء من كتابات قاسم أمين عزاه البعض إلى أن «كامل» كان طول الوقت شخصية محافظة فى القضايا الاجتماعية، فيما استمر يتكرر فى مواقف أخرى بعد ذلك. ففضلا عن النقد المرير الذى تعرض له أمين من صاحب اللواء فإنها أفسحت مساحات معتبرة منها لخصوم الرجل الذين رموه بأنه «ممن تخطف زخارف التمدن الأوربى بصائرهم يرى المحاسن ولا يبصر المساوىء»، وعزاه البعض الآخر إلى أن مؤلف تحرير المرأة كان محسوبا على جماعة «محمد عبده» والتى كان ينظر إليها رجال مصطفى كامل بريبة شديدة.

أما المؤيد، فقد اندهش قراؤها عندما احتضنت بدورها عددا من منتقدى الرجل على رأسهم «محمد فريد وجدى» أشهر كتاب العصر المعنيين بالشئون الإسلامية، فضلا عن العديدين الذين تهكم أحدهم يتهكم على دعوة قاسم أمين بخروج المرأة للعمل «فإذا البيوت مقفرة والشوارع مزدحمة بالرجال والنساء والمحال التجارية وقف بها المتحككون بالنساء البائعات، أما الرؤى فخليط عجيب، امرأة بقبعة وامرأة بغيرها، والمقص قد تحيف الجيوب والذيول والأكمام والتصقت الملابس بالمرأة حتى صارت كبعض جسمها» !

وفى هذه الظروف تظهر الأهرام وقد ناصرت قاسم أمين على طول الخط، فهى كانت قد بدأت تروج لكتاب «تحرير المرأة» حتى قبل ظهوره، الأمر الذى يبدو من الخبر الذى نشرته فى عددها الصادر يوم ٢٥ فبراير عام ١٨٩٩، أى قبل صدور الكتاب بما يقرب من ثلاثة أشهر .. جاء فى هذا الخبر..

«علمنا أن الكتاب الذى وضعه حديثا حضرة العالم الفاضل قاسم بك أمين المستشار فى محكمة الاستئناف الأهلية وسيسرع فى تمثيله بالطبع

قريبا يتضمن أبحاثا مهمة جدا مبينا فيها ضرورة تعليم المرأة وتربيتها لترقى بها الأمم فى معارج الحضارة، وأن من أعظم الأسباب فى تأخر الشرق جهل النساء فيه، وأن الدين الإسلامى يدعو لتهذيب المرأة».

ويعرف من درس حياة محرر المرأة أنه كان يلتزم بنظام صارم فى حياته اليومية .. فى المحكمة صباحا، عصرا وحتى السابعة مساء مخصص لراحته وأسرته، وحتى العاشرة فى القراءة، ثم يغادر بعد ذلك داره لقضاء سهرته مع أصدقائه، والتى كثيرا ما كانت تمتد حتى الواحدة من صباح اليوم التالى.

يعرفون أيضا أن الرجل كان يقرأ فى هذه الجلسات بعض فصول من كتابه، ما لم يعرفوه، أن الأهرام كان يحضر بعض هذه الجلسات مما يكشف عنه الخبر السابق، ونعتقد أن هذا الحضور حدث من خلال بشارة نقلا نفسه، فمثل تلك المجالس التى ضمت محمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد لم يكن يحضرها أقل من الباشا صاحب الجريدة !

ويعُزى الموقف المؤيد للأهرام -فى رأينا- لانتماء أصحابه للشوام من المسيحيين القادمين من جبل لبنان، والأكثر انحيازا لأفكار التقدم الأوربى بحكم احتكاكهم المستمر به..

يتأكد ذلك من أن أبناء هذه الأقلية كانوا أكثر من أرسلوا بناتهم إلى مدارس الإرساليات، فضلا عن أن تلك المحاولات المبكرة لفتح مدارس خاصة لتعليم البنات قام بها عدد من نسائهم ممن يحفل تاريخ التعليم المصرى بأسمائهم.

* * *

استقبلت الأهرام ظهور «المرأة الجديدة» بمظاهرة صحفية بدت فى جملة

من مقالات الترحيب الحار بالكتاب ..

تحت عنوان «تحرير المرأة» وفى يوم ٢٠ مايو عام ١٨٩٩ خصصت الجريدة مقالا شغل أغلب صفحتها الثانية، استعرض كاتبه فى مستهله محتويات الكتاب مما اعتبره أسمى كلام «فى تربية المرأة ووظيفتها فى الهيئة الاجتماعية وفى العائلة وفى حجاب النساء، من الوجهتين الاجتماعية والدينية .. وفى الزواج وتعدد الزوجات والطلاق، وفى وجوب العلم وضرورة نشره»، مما وصفه الكاتب «بالفصول الرائعة والأبحاث المفيدة التى تنير بصائر الشعوب وترقى الأمم».

ولأن الأهرام كانت تعلم من أين ستهب الرياح على «محرر المرأة»، فقد حرص صاحب المقال على إبراز أن «الشرع الإسلامى سبق سواه إلى مساواة الرجل بالمرأة، وأن تربية المرأة وتعليمها أمران واجبان لا مناص منهما خلافا لما يعتقده بعض الشرقيين.. وإن الحجاب المتبع الآن ليس هو الحجاب الذى يحرم المرأة اكتساب فوائد الاختبار ويعود على الهيئة الاجتماعية فى الشرق بالتقهقر والانحطاط».

وقد حمدت الأهرام لمزتلو قاسم بك أنه لم يفعل مثل غيره من «أفاضل المسلمين الذين نسمع منهم أقوالا فى هذا الأمر الخطير ولكن لم نر منهم من أقدم على طرق هذا الباب».

ولم تنس الجريدة فى هذه المناسبة أن تحث القراء على اقتناء الكتاب فهو «مطبوع على ورق جيد وبأحرف جميلة فى ١٦٢ صفحة وثمنه ١٠ غروش صاغا وأجرة البريد غرشان» !

ويبدو أن بشارة تقلا، الذى كان بالإسكندرية وقتئذ، قد ارتأى أن مقال الصفحة الثانية غير كاف للتعبير عن أهمية الكتاب مما نستنتجه من أن

الرجل وضع مقالا شغل أغلب الصفحة الأولى فى عدد الأهرام الصادر بعد يومين، وقد حفل بالحماس للمؤلف مما بدا فى قوله أن أمين خدم دينه ودنياه على نحو قلما فعله غيره من قبل ..

أما خدمته لدينه فقد «فند مزاعم خصوم المسلمين من الكتاب الذين تطاولوا على معتقداتهم وقالوا أن الإسلام عقبة فى سبيل الإصلاح والمدنية، والحقيقة أن الإسلام لم يقل ذلك مطلقا وأيد المؤلف ذلك بالنصوص والآيات التى فضحت جهال المسلمين».

وأما خدمته لدنياه فبدت فى استلفات أبناء وطنه المصرى «للمدافعة عن الحقوق الوطنية الشريفة وإرجاع مجد أجدادنا وتعزيز شأن الشرقى وتحريره من الاسترقاق الأجنبى»، تبع ذلك إلى أن دعا الألوف إلى أن تتبع «الكاتب الفاضل» لأنه «إذا كان العلم قد حرم الكثيرين من معرفة مواجبهم فالحاجة قامت تستيقظهم».

وقد وصل حماس الأهرام إلى ذروته عندما طالبت قاسم بك أن يُعنى بترجمة كتابه إلى الفرنسية فيصبح بذلك صاحب فضل مزدوج «إذ يعرف الأجانب بأن المرأة عندنا ليست على ما يظنونه من الاسترقاق والعبودية».

على الجانب الآخر اتخذت الأهرام موقفا شديد الفتور من منتقدى تحرير المرأة على خلاف المؤيد، مما بدا فى أكثر من مناسبة ..

من هذه المناسبات الكتاب الذى وضعه عبد المجيد أفندى خيرى «مدرس الرياضة فى مدرسة الجمالية» تحت عنوان «الدفع المتين فى الرد على قاسم بك أمين» والذى أهداه إلى الأهرام فعلقت عليه بقولها «إننا نأسف لقيام بعض الكتاب الأدباء كحضرة مؤلف لدفع المتين على بقاء القديم على قدمه فى حين أن الأمم الشرقية لا خلاص لها مما هى فيه سوى بترك الضار من العادات القديمة».

الكتاب الثانى وضعه «محمد طلعت حرب أفندى العامل بالدائرة السنية» (هو نفسه طلعت حرب الاقتصادى الشهير بعدئذ) تحت عنوان «تربية المرأة» والذى رحبت به سائر الصحف باعتباره أفضل الردود على «تحرير المرأة»، وهو ما لم تستطع الأهرام إنكاره وإن كانت قد أبدت استغرابها من قول حرب أفندى أن المرأة أقل إدراكا من الرجل وبوجوب التربية للرجل قبل المرأة.

وبعد أن تزايدت السهام التى وُجهت للكتاب وصاحبه لم يجد قاسم بك بدا من الرد، وهو ما قاده إلى إصدار عمله الثانى «المرأة الجديدة» فى مطلع عام ١٩٠١، بعد عام ونصف عام من كتابه الأول، مما اعتبرته الأهرام استمرارا فى الجهاد وثباتا للسعى «لترقية المرأة الشرقية».

غير أننا نلاحظ أن الجريدة تبنت حيال العمل الثانى لقاسم بك موقفا مختلفا فيما بينته باستقبالها له بالقول: «نرجئ الكلام عن هذا السفر الجديد لنكون فيه باحثين لا مقرظين مادحين، لأن الغاية من هذا التأليف جلاء الحقيقة والحقيقة بنت البحث».

بعد أسبوعين، وبعد قراءة متأنية من بشارة تقلا، بدأت الأهرام توفى بوعدها على شكل سلسلة من المقالات تحت عنوان «المرأة الجديدة» ظلت تحتل الصفحة الأولى بدءا من يوم الاثنين ٤ فبراير عام ١٩٠١ .

اعتبر تقلا باشا هذه المقالات من «قبيل الجزية الواجب علينا أداؤها لحضرة المؤلف، لا لأنه كتب فى هذا الموضوع فقط بل لأنه ثبت فى خطته بالرغم من أقوال المنددين وكتابات المعارضين، وأنه لم ييأس كالشرقى الذى تقعده معارضة إخوانه، بل سار كما سار أفراد الغرب الذين قلبوا سابقا الهيئة الاجتماعية فى أوربا بفضل كتاباتهم غير خائفين استبداد الحكام ولا محجمين أمام جهل العامة» !

وقد توقفت الأهرام عند عبارة قصيرة جاءت فى «المرأة الجديدة» أراد صاحبه من خلالها التأكيد على أن تأخر الشرق عموما، وليس البلاد الإسلامية فحسب، صادر عن انحطاط مكانة المرأة فيما جاء فى قوله: «انحطاط المسلم كانحطاط الهندى والصينى وجميع سكان الشرق عدا اليابان» .. توقف تقلا عند هذا الاستثناء الأخير وانتهزها فرصة لتقديم تفسيره الخاص عن أسباب تقدم اليابانيين .. قال:

«اليابانى تقدم لا لأنه تعلم فى أوربا علمها فقط، بل لأنه لم يكن عنده ما يدعوه إلى التمسك بمبادىء أجداده وآبائه الأولين، ولو تمسك بها تمسك الصينى أو الشرقى على وجه عام لما أفلح فلاحه الحالى «ودلل على ذلك بأن الذين يدرسون فى أوربا من العثمانيين يربو على عدد اليابانيين ولكن النتيجة كانت على طرفى نقيض» !

فى مقال آخر دللت الأهرام على صحة ما نادى به صاحب «المرأة الجديدة» عندما ساق عددا من أخبار الحوادث التى كانت قد نشرتها الصحف مؤخرا .. رجل ضرب زوجته ضربا مبرحا لأنها خرجت تزور أمها، آخر رأى امرأته تنظر من النافذة فظل يضربها حتى سقط معها على مصباح فأمسكت النار بهما وتوفيا محترقين، ثالث انصرفت زوجته عنه بإعداد الطعام فضربها وقطع شعرها، ورابع وخامس، الأمر الذى دعا الجريدة إلى التعبير عن دهشتها من أن منتقدى قاسم بك انصرفوا عن تلك الحوادث وملأوا «أعمدة الجرائد خوضا فى نقطة دينية لا تعنيهم وإنما هى من حق مشايخ الدين» !

ضربت الأهرام على هذه النغمة فى سائر مقالاتها ورأت أن هناك سوء فهم بين المؤلف وخصومه «فهم ينظرون إلى قوله برفع الحجاب ولا ينظرون إلى رأيه فى رفعه، فهم يتوهمون أنه يريد إخراج المخدرات والمصونات من

خدورهن إلى الشوارع حاسرات فيهيجهم مثل هذا، ولكنه لا يرى ذلك .ل تربية المرأة وتعليمها حتى تصبح سيدة بيتها وشريكة زوجها ومربية ولدها».

ويختم صاحب الأهرام مقالته الأخيرة بقوله أنه على يقين أن «هذه الحركة الصغيرة ستكون أكبر حادثة فى تاريخ مصر»، وأن الفاضل عزتلو قاسم بك أمين لم يصده عن المثابرة فى السعى إلى تحقيق الآمال أن «الجمهور من العامة لم يلتفت إليه ثم أن بعض الكتاب أظهروا السخط عليه ما بين منتقد لم يتفق رأيه مع رأيه، وساخر يقضى عمره فى السفاسف، ومفتر ينكر عليه حسن نيته»، ونظن أن الأهرام كان مصيبا فى هذا التشخيص.

الفصل الثامن

المرأة الجديدة فى مرآة الفن !

مقال طويل اتخذ طابع النقد الفنى نشرته الأهرام ٢٩ مايو عام ١٩١٣ جاء تحت عنوان «مناظرة حادة على معنى المرأة الجديدة- صراع شديد بين بنات الشوارع وبنات الخدور» كان بداية لمعركة فنية وأدبية استغرقت أغلب شهور صيف ذلك العام، وهى وإن لم تسجلها مراجع تاريخ النقد إلا أن جريدتنا قد احتفظت بها !

صاحب المقال الذى آثر أن يوقع باسم مستعار .. «المتمصر» استهله بالإشارة إلى الرواية التى شهدها أهل العاصمة فى الليلة السابقة على مسرح «برنتانيا»، وكانت تحت إسم «بنات الشوارع وبنات الخدور» وهى رواية «حديثة الحوادث، عصرية الموضوع. تأليف فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة. وقد مثلها جوق النابغة جورج أبيض».

انتقل بعد ذلك إلى ما أسماه مغزى الرواية الأساسى وهو «إن استقلال المرأة الأدبى ورقيها لا يعنيان تطرفها فى الحرية ولا يسوغان لها التعرض للتجربة. وبعبارة أخرى أن تطرف المرأة الشرقية فى الحرية وتهورها ليسا نتيجة للاستقلال الشخصى بل نتيجة الفساد المستتر بستار الاستقلال الذاتى. فقد تكون المرأة عاملا حرا نافعا فى الهيئة الاجتماعية من غير أن يوصم عرضها بوصمة»، وكانت الدكتورة أمينة كما جاءت فى الرواية تمثل هذا النوع من النساء.

بالمقابل قد تكون المرأة عاملا مفسدا فى الهيئة الاجتماعية «وتموه على فسادها بتظاهرها بأنها قدوة فى الشجاعة الأدبية وبث المبادىء وبحل المرأة الشرقية من عقال العادات القديمة وقد مثلت هذا الدور سوسان الفرنساوية زعيمة العاملات وأمثالها من الفتيات اللواتى يعشن عيشة الاستقلال والاعتماد على النفس ويزعمن أن استقلالهن هذا يخولهن الحرية المطلقة

وإطلاق العنان لأنفسهن حسب ما تقضى به أهواؤهن».

المسرحية كانت أشبه بمناظرة بين المرأتين حاول من خلالها المؤلف تفسير معنى (المرأة الجديدة) كما صاغها قاسم أمين، فسوسان انتحلت تمثال المرأة لتموه به على فسادها وفساد مثيلاتها والدكتورة أمينة «جاهدت فى أن تظهر ذلك التمثال طاهرا من كل عيب».

وقد جرت العادة فى ذلك العصر أن يشرح مؤلف الرواية فى الإعلان الذى يقدم لرواد المسرح لدى الدخول «موضوع الرواية والفكرة التى بنيت عليها»، وقد جاء فى هذا الشرح أنها قد قامت على أساس ست أفكار :

* اضطرار المرأة أحيانا أن تقوم مقام الرجل فى السعى وراء الرزق «صيانة لنفسها ولعيلتها وفرارا من الوقوع فى العار»، ومثل هؤلاء هن بنات الخدور على حد توصيف المؤلف، أما بنات الشوارع فهن «اللواتى يتجرن بجمالهن خاصة الأجنبيات اللاتى يتسلطن على شبان الشرق ويسلبن عقولهم وأموالهم بما لهن من الجاذبية الخاصة ويصرفنهم عن الزواج وهذا سبب من أسباب أزمة الزواج التى يشكو الناس منها» !

* ما ينتج عن عدم الاكتراث فى صلات الخطيبين قبل الزواج، وتجاوز ما هو مسموح به من تعارف شرعى «وهو ما كان بين لطيفة والأستاذ علام الأمر الذى سهل انفصالهما».

* الحرب بين الحرية النسائية المتطرفة مجسدة فى بنات الشوارع اللاتى أنشأن جمعية لتأييد سوسان والحرية النسائية المعتدلة ممثلة فى بنات الخدور اللاتى ألفن برئاسة الدكتورة أمينة.

* أثر العشرة الرديئة فى إفساد الأخلاق الطيبة الصحيحة، ودعوة الشبان إلى ترك نساء الشوارع والعودة إلى بنات الخدور مما بدا فى مخاطبة

الدكتورة أمينة للأستاذ علام: «أنت تريد إنهاض امرأة سقطت. ولكن حذار أن تسقط إليها وأنت تسعى فى إنهاضها .. إن العناية بالأصحاء لوقايتهم من المرض مقدمة على العناية بالمرضى أى الدعوة إلى الزواج والعيلة» !

* «البيت» نعيم بنت الخدور أم الأولاد والعيلة بينما نعيم بنت الشوارع هو "الرجل" فيما وضعه المؤلف على لسان «الفتانة سوسان قبل نفيها من مصر وهى تكلم الدكتورة أمينة».

* تصوير حياة الخلاعة والمجون التى اتخذ المؤلف نموذجا لها الدكتور كبه بك «وهو أول مثال يعرض على المسرح للرجل الشرقى قانص النساء الإباحى المزاج الذى لا يقيده قيد داخلى ولا خارجى ويفتح طريقه فى الحياة مستمدا قوته من وقاحته ومن غباوة الناس. وقد دعىَ كبه بك على سبيل المجانسة بين اسمه وأخلاقه» !

قرظ «المتمصر» تمثيل الرواية التى تبث مثل هذه الأفكار فى نفوس الحضور «من غير أن تتلقنها أذهانهم كدرس مدرسى فإذا استمر التمثيل العربى ناحيا هذا النحو كان مدرسة العالم العليا للناشئة. وكان ما يشاهدونه فيها يهبهم اختبار الشيخوخة والكهولة وهم فى عهد الشباب»، وهو ما لم يكن رأى آخرين !

وقبل أن نتعرف على هذا الرأى ونتابع المعركة التى جرت على صفحات الأهرام خلال الأشهر الثلاثة التالية؛ من المفيد أن نتعرف على المناخ الفنى العام الذى جرت فى ظله تلك المعركة ...

* * *

قبل أكثر من سنة، وفى ٢١ مارس عام ١٩١٢، وتحت عنوان «جوق أبيض-فاتحة أعماله»، بشرت الأهرام قراءها بعودة شاب كان قد أوفده

الخديوى إلى «أكبر مدارس التمثيل فى أوربا حتى فاز ونبغ وعاد إلى مصر فألف جوقة من الأدباء وانتقى أحسن الروايات . وتقدم هو وجوقه إلى الجمهور المصرى العربى يعرض عليه نتيجة علمه وتعلمه واجتهاده وسعيه وجده»، ولم يكن هذا الشاب سوى جورج أبيض.

وقد جاء هذا الخبر على شكل بشرى لما ارتأته الأهرام من أن تمثيل الجوق الجديد «ليس رواية تتلى فقط ولا عشقا ولا غراما يصور. ولكنه الحياة تبرز بصورتها الصحيحة تمجد فيها الفضيلة وتستنكر الرذيلة .. إنها علم ومعرفة يتلقاه الجمهور بلا كد ولا تعب ولا تكلف»، ولا تملك جريدتنا بعد ذلك إلا أن تحث المصريين على تعضيد الفرقة الجديدة وأن يقبلوا على مشاهدة مسرحياتها لأن تمثيلها «سيروقهم جدا لأنه لا يقل عن تمثيل الأجواق الإفرنجية المتقنة ويفضلها لأنها بلغتنا العربية».

الرواية : التى استهل بها الجوق الجديد نشاطه كانت «أوديب»، المسرح: الذى عرضت عليه كان الأوبرا الخديوية، الحفل: حضره الخديوى الذى وصل قبل التمثيل «فوقف الحاضرون إجلالا وعزفت موسيقى الجوق بالنغم الخديوى فصفق لها الحاضرون إكراما .. وبدأ تمثيل الرواية».

بعد أن استعرضت جريدتنا وقائع المسرحية المشهورة، عمدت إلى نقدها، وهو نقد لم يخل فى بعض مواقعه من المآخذ فيما بدا مما أخذته على بعض الممثلين من أنهم «لايزالون يحفظون عن طريقة قديمة فى التمثيل مد الصوت مع الخنة الصائبحة فى آخر كلمة من العبارة»، غير أنه قد غلب عليه روح التقريظ، فيما جاء فى أكثر من موقع، تقول فى أحدها «وصل الجوق بأجمعه إلى حد الإجادة فتملك النفوس وملك قيادها. فلكلمة فرح كانت تنطلق أسرَّة الجمهور ولكلمة حزن كانت تنقبض وبكلمة رجاء كانت تنتعش. وهذا جهد ما يصل إليه مجيدو التمثيل فى إجادتهم»، وعن الموسيقى تعبر

عن الإعجاب بحسن التوقيع «أما الرقص المقدس فإنه كان جميلا» !

جوق أبيض كما أخبرنا قارىء أهرامى إسمه محمد توحيد كان يتألف من فريقين: «فريق أدباء أو محامين تركوا مهنتهم الأولى. لا عن خسارة أو عجز. وحازوا شرف الإقدام على خدمة الأمة بخدمة فن لاتزال عامتنا تجهل قدره. وفريق خبرة من أولئك الممثلين العصاميين فى فنهم، القادرين عليه بميلهم الخاص وذوقهم الفطرى وطول تدريبهم فيه مع الشيخ سلامة حجازى، المستكملين دقة واتقانا من إتقان رئيسهم الجديد» !

غير أنه كان من رأى هذا القارىء وغيره ممن تصدوا للكتابة فى موضوع النهضة المسرحية الجديدة فى مصر أن فرح أنطون الذى عرّب رواية «أوديب» قادر على أن يضع الروايات التمثيلية «فى أحوالنا الاجتماعية والأخلاقية. وأجدر بالحكومة حثهم على ذلك بما تملك من وسائل الترغيب»، ولم ينتظر محمد توحيد وزملاؤه طويلا لتحقيق هذا الأمل.

غير أنه فى تلك الأثناء كان جوق جورج أبيض يزداد انتشارا ويزداد نجاحا، فهو من ناحية، قد قدم مجموعة من الروايات المتنوعة العربية، وهو من ناحية أخرى، نقل نشاطه إلى خارج القاهرة، بل وإلى خارج مصر أيضا.

من الروايات كان هناك لويس الثالث عشر الذى جسده جورج أبيض «فى ملابسه وأزيائه وسكونه وخشوعه وحلمه واستبداده وفى حركاته وإشاراته وتقلباته ودهائه ومكره أعجوبة من العجائب لأنه سطا على القلوب فتملكها، كما كان الملك لويس مالكا رقاب رعيته وشعبه». وكان منها ثانيا «مدنية الأندلس» التى وضعها فيكتورين ساردو «إظهارا لفضل العرب ومعارفهم وأحوالهم ومبلغ مدنيتهم فى ذلك الزمان»، وكان منها ثالثا رواية «الشيخ متلوف» التى تخلل فصولها رقص وغناء، ثم «مضحك الملك، وهى الرواية التى راقت الجمهور كثيرا» !

مكانيا امتد نشاط الفرقة خارج القاهرة، وكان طبيعيا أن يبدأ بالإسكندرية حيث أحيا ثلاث ليالى بمسرح الحمراء قدم فيها ثلاث روايات: أوديب الملك، لويس الحادى عشر، عطيل «وقد امتلأ المرسح بالحضور حتى لم يبق فيه محل لجالس وكان بينهم سراة وأعيان وأدباء ما كان أحد يراهم يشهدون تمثيل رواية عربية قبل الآن، وكان الجميع الكبير والصغير يصبون أبصارهم على الممثلين ويرافقون الأدوار بأفهامهم إلى النهاية لذلك كان يلوح على مجموعهم تأثير الرواية ورسوخ وقائعها فى الأذهان» !

فى المنصورة قدم الجوق ثلاث ليال أخرى وقد أمَّ المسرح جم غفير من سكان المدينة «حتى ضاقت ساحة المكان بالمتفرجين فأغلقت الأبواب وكان الغاضبون أكثر من الراضين لعدم بقاء مقاعد لدخولهم إلى المرسح .. ورقص الراقصات رقصا بديعا ومدهشا أخذ بمجامع الألباب وصفق القوم مرارا وتكرارا».

نفس الروايات الثلاث قدمتها الفرقة فى طنطا «بحضور جمهور غفير وجلهم من كرام القوم وكان المرسح يتيه عجبا ودلالا بمناظره البديعة وأنواره الكهربائية المتلألئة فرأى الجمهور من براعة الممثلين ورشاقة الممثلات ما سلب عقولهم، وقد زاد إعجابهم وسرورهم برئيس الجوق جورج أفندى أبيض».

فى أبريل عام ١٩١٣ أثيرت مرة أخرى قضية تمثيل روايات عربية التأليف، وقد طرحتها جريدة البروجريه الفرنسية بتساؤلها عن الأسباب التى تحول دون أخذ الكتاب العرب رواياتهم من تاريخ العرب «ولماذا لا يمثلون على الملاعب أخلاق الشعب وحكاياته وتاريخه وتقاليده؟؟»، وجاء جواب الأهرام أن السبب قلة المال وطالبت الحكومة بعدم الضن على هذا الفن الجميل لبصير «التمثيل العربى مدرسة عربية للأوربيين ذاتهم ولاسيما

الأوربيين الذين يتوقون لتعلم العربية».

وبعد موسم طويل فى تياترو عباس بالقاهرة خلال خريف عام ١٩١٢ أعلن الجوق أنه سيبدأ من أول أكتوبر فى جولة فى كل من تونس والجزائر لتمثيل عدة أسابيع هناك .

ولم ينقض سوى شهر بعد ذلك إلا وكان الأمل قد تحقق، وكانت الولادة عسيرة !

* * *

أثارت رواية «بنات الشوارع وبنات الخدور» التى قدمها جوق جورج أبيض فى ٢٨ مايو عام ١٩١٣ ضجة كبيرة بين قادح ومادح باعتبارها أول رواية عربية تأليفا وتمثيلا ..

«الدكتور الفاضل حافظ عفيفى»، طبيب الأطفال الذى اشتغل بالحركة الوطنية بعدئذ حتى وصل إلى رئاسة الديوان الملكى قبل عام ١٩٥٢، كان أول من تعرض بالنقد للرواية الجديدة .. السبب شخصية الدكتور كبه بك .. الطبيب الفاجر، وإن كان نقد الدكتور عفيفى قد طال جوانب أخرى من الرواية.

قال : إن الرواية من نوع القصص التمثيلية التى لا تمثل فى غير مسارح القهاوى المعدة للرقص والغناء، وقال أنها من تلك القصص التى يطلق على الليلة التى تمثل فيها (ليلة سوداء) ويحرم على الفتيان والفتيات غشيانها، ووصل بعد ذلك إلى بيت القصيد فى حديثه عما قدمه المؤلف من صورة طبيب مصرى «سكيرا وداعيا لشرب الخمور فاسقا ويفهم منه تعميم هذه الصفات فى جميع الأطباء الوطنيين مما يحقرهم فى أعين الناس أجمعين».

انبرت الأهرام للرد على انتقادات حافظ أفندى عفيفى .. فندت مسألة

مسارح القهاوى بقولها أن الرواية «لا تقل عما يمثل من الروايات الانتقادية العصرية فى أحسن ملاهى التمثيل بفرنسا وغيرها»، أما إدراج «بنات الشوارع وبنات الخدور» ضمن روايات الليالى السوداء فقد استنكرته الأهرام «فليس فى الرواية ما يخجل أكثر مما فى سواها من الروايات العادية كرواية نابليون والبرج الهائل وغيرهما».

غير أنه لما كانت جريدتنا تعلم السبب الحقيقى لهجوم الدكتور عفيفى فإنها خصصت أغلب دفاعها لقضية الدكتور كبه، وكان رأيها أن فى طائفة الأطباء من هو شر من مثل الدكتور فى الرواية كما أن منهم أطباء هم «مثال الشرف والعفة والأمانة»، وأن فى كل طائفة تجد جميع الأصناف «ففى الحقوقيين وغيرهم من تقشعر من سيرتهم الأبدان»، وأنه كان أحرى بطائفة أصحاب العمائم أن يقدموا شكاواهم «فالشيخ علام فظيع جدا» !

وكان ارتفاع أصوات النقد لأول رواية عربية تقدمها فرقة جورج أبيض ما دعاها إلى أن تصدر بيانا نثبته هنا بنصه .. جاء فيه «كثر القيل والقال فى شأن رواية (بنات الشوارع وبنات الخدور) تأليف فرح أنطون التى مثلها الجوق فى الأسبوع الماضى فمن مثن عليها أعظم ثناء وناقد لها أشد نقد ولذلك عزمت إدارة الجوق على تقديم ليلة خصوصية للجمهور فى تياترو برنتانيا فى مساء يوم الاثنين تمثل فيها هذه الرواية وجعلت أسعار الدخول متهاودة ليتسنى لمن لم يحضر الرواية أن يحضرها ويتأكد أنه ليس فيها شئ مما يسوء» !

يبدو مع ذلك أن الرواية قد استمرت تلقى الانتقادات من جانب الأطباء حتى أن المحافظة قد أمرت بعدم تمثيلها إلا إذا دخل عليها بعض التنقيح «لكى تحسم القيل والقال» كما جاء فى قرار المحافظ، مما دعا القائمين على الجوق إلى حذف لفظة دكتور من تسمية «كبه بك»، وأطلقت عليه لقب

الموسيو، الأمر الذى لفت نظر صاحب المقالات الذى ظل يوقع بإسم «المتمصر»، فوضع مقالا نشرته الأهرام فى ١٤ يونيو عام ١٩١٣ تحت عنوان «عصمة الطب والأطباء».

اتهم صاحبنا نفرا قليلا من الأطباء بأنهم أقاموا القيامة على بنات الشوارع وبنات الخدور مدعين فى ذلك «عصمة كل طبيب على وجه الأرض وينكرون أن بين زملائهم أفرادا، قليلين أو كثيرين، أسوأ سيرة من الدكتور كيه بك ويريدون أن يقنعوا الرأى العام أن الأطباء من طينة الملائكة والأولياء الذين بلا عيب».

ويدلف من ذلك، وبشكل ساخر، إلى ذكر بعض عيوب العاملين بمهنة الطب، فهو بينما يعرب عن سروره بوضع الأطباء فى مرتبة الملائكة غير أن سروره سوف يكون أكبر إذا ثبت له أنه «لا يوجد طبيب يشارك الصيدلى فى رزقه فيحتم على عليله أن يبتاع أدويته من أجزاخانة معينة له فيها مصلحة أو حصة وأن لا يوجد طبيب يطعن بزميله أمام عليليهما ولا يطرد من أمام باب عيادته مستطبا بحجة أن عنده زبائن كثيرين وهو فى غنى عن معالجة الفقراء بنصف أجرة أو مجانا مثلا».

تصدى الدكتور عبد العزيز نظمى، وهو طبيب عيون كانت عيادته تقع فى شارع عبد العزيز اكتسب سمعة عريضة بين الأطباء للدور الذى أداه فى الحياة العامة، وكان أبرز ما فيه ما قام به فى سبيل إنشاء جمعية الهلال الأحمر .. تصدى للمتمصر، وأعلن أنه على استعداد لمناظرة «المتمصر» بشرط أن يعرف حقيقة اسمه «ليكون كلانا على بينة من مناظره .. والله يهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم».

تحت عنوان «جواب المتمصر إلى الدكتور نظمى» سأل الأول الثانى «ماذا يزيده فائدة فيما إذا علم أن المتمصر يسمى (زيدا) مثلا وهو لا يعرف

شخصية زيد. فالمتمصر وزيد عنده سيان. وهب أنه عرف شخص المتمصر فهل تقوى حجته فى المناظرة إذا كان يريد أن يحقق حقائق لا أن يحارب أشخاصا؟، فالمسألة مسألة حقائق معزوة إلى تصرف بعض الأطباء (لا كلهم) ياحضرة الفاضل».

فى مقاله الطويل الذى نشرته الأهرام على صفحتها الأولى فى عددها الصادر يوم ١٥ يوليو عام ١٩١٣ تحت عنوان «العصمة لله وحده» نفى الدكتور عبد العزيز نظمى أنه طلب معرفة شخصية المتمصر ليحاربه ولكن لأن «آداب وقواعد المناظرة تقضى بأن يعرف المتناظران بعضهما بعضا حتى يكون كل منهما على بينة من حقيقة الآخر»، ثم انبرى بعد ذلك لدفع غوائل الاتهام عن طائفة الأطباء «التى تؤدى للإنسانية أعظم الخدمات بحجة أنه يوجد بين المشتغلين بهذه المهنة بعض أفراد لا يؤدون واجبات مهنتهم بشرف وإخلاص وأمانة».

بعد ذلك قدم دفاعا طويلا عن أبناء مهنته عن كل ما تعرضوا له من المتمصر مما وضعه فى نقاط أساسية:

١) رفض أن يصبح الشذوذ قاعدة، فهو وإن لم ينكر وجود بعض الاستثناءات ممثلة فى الأطباء الذين يتفقون مع صيدليات بعينها فإن ذلك لا يعنى أن التوصية من جانب الطبيب بشراء الأدوية من صيدلية ما تعنى بالضرورة أن تواطؤا ما قد تم بين الطرفين على حساب المريض ولكنها لتجنب «فوضى الصيدليات ومنافستها الشديدة التى تلجىء بعض الصيادلة حبا فى كثرة الربح إلى التلاعب فى جودة وأنواع ومقادير الأدوية فينسب سوء تأثير الدواء إلى جهل الطبيب وعلى ذلك يكون من واجبات الطبيب أن يجتهد فى اتقاء شر الصيدلى محافظة على سمعته وعلى صحة المريض».

٢) استنكار اتهام الأطباء بعدم الرحمة مع المرضى الفقراء، وأن عديدين منهم «يعالجون فى عياداتهم الخاصة مرضى فقراء بدون مقابل بل أن بعضهم يدفع ثمن الدواء للمريض وأحيانا يعطيه بعض نقود أخرى لمشترى أغذية ولكن الأطباء لا يستدعون شهودا لإثبات حسناتهم على الفقراء، بل يعملون الخير حبا فى عمله ومرضاة الله»، وهو الدفاع الذى لم يقبله المتمصر بسهولة ورأى أن مثل ذلك إذا تم ففى حدود ضيقة للغاية.

٣) رفض ما جاء فى قول المتمصر أن بعض الأطباء يكثرون من وصف مستحضرات جاهزة، وأن لهم فى ذلك مصلحة مادية من بائعى هذه المستحضرات، مما جاء فى قوله أن الطبيب «قد يضطر أحيانا إلى وصف مستحضرات مجهزة ويكون ذلك فى صالح المريض لا فى صالح الطبيب، وذلك إما لعدم ثقة الطبيب فى الصيدلية التى يتعامل معها المريض وإما لأسباب فنية يراها الطبيب ولا يفقه سرها غيره».

المتمصر الذى لم يفصح الأهرام عن اسمه أبدا، وإن كنا نعتقد أنه من كتابها لأن الجريدة تركت له الكلمة الأخيرة، عاد ليردد حججه فى عدد الأهرام الصادر يوم ١٩ يوليو وإن كان قد ركز على الجانب الخاص بالأدوية الجاهزة التى كانت قليلة الاستخدام فى ذلك العصر، فهو بعد أن أبدى استغرابه من تباهى بعض الأطباء بتلقف كل ما هو أجنبى للدلالة على سمو علمهم ذكّر الدكتور نظمى بأن هذه الأدوية «عالية الثمن جدا وبعضها لا يكاد يحتمل عبئه الفقير».

وفى تلك الأثناء تدخل آخرون فى المناظرة، وتحت نفس العنوان «عصمة الأطباء»، كان منهم قارىء إسمه م.الوكيل الذى كتب عن حادثة مؤداها أن أحد الأطباء قد سلب عفة فتاة بعد أن نومها تنويما مغناطيسيا ليقول بعد ذلك أن تلك الحادثة قد «أقامت الدليل القاطع على قول حضرة المتمصر أنه

لم يزل بين هذه الطبقة الراقية الشريفة أفراد شريرون».

والملاحظ أن المناظرة التى أثارتها رواية «بنات الشوارع وبنات الخدور» قد تحولت إلى قضية لازالت مطروحة حتى يومنا هذا حول أصحاب مهنة لها حساسيتها الخاصة نتيجة لاتصالها بأعز ما يملك الناس .. الصحة، مما بدا معه وكأن ملف القضية الأولى التى كانت ورا معا قد أغلقت، وهو الأمر غير الصحيح، فقد ظل العمل المسرحى فى تاريخ النقد الفنى يتعرض لكثير من أسباب التقييم، إن سلبا أو إيجابا، ويظل مع ذلك من أهم المؤشرات على عافية هذا الفن الرفيع، ويبقى من قدر المسرحيين أن يتركوا خشبتهم بعد منتصف الليل ليستيقظوا فى الصباح على الصحافة التى تنتقدهم !

الفصل التاسع

الحجاب والسفور - معركة مجهولة

على الصفحة الأولى من عدد الأهرام الصادر يوم الخميس ٢٧ مايو عام ١٩١٥ أعلنت جريدتنا أنها قد أقفلت «باب المباحثة بين السفوريين والحجابيين فى المرأة المصرية بعد ما سرد كل فريق ما عنده من الحجج والبراهين»، وهو باب كان قد فتح بدءا من يوم ٢٤ فبراير فى معركة طويلة أفسحت الأهرام خلالها مساحة معتبرة من صفحاتها لمعركة نشبت بين أنصار استمرار إبقاء المرأة المصرية تحت الحجاب والداعين إلى خلعه، نشرت خلالها أكثر من ثلاثين مقالا لهؤلاء، وأولئك، ومع أن المعركة ليست جديدة فقد بدأت قبل ستة عشر عاما فى أعقاب نشر قاسم أمين لكتابيه الشهيرين .. تحرير المرأة والمرأة الجديدة، كما أشرنا من قبل، غير أنه مما يلفت النظر اشتعال أوارها فى هذا الوقت بالذات الذى اشتعلت خلاله نيران الحرب العظمى، والتى بدأت وقتئذ فى الاقتراب من مصر بعد أن أخذت الجيوش التركية فى الزحف باتجاه قناة السويس.

ومع ما يبدو لأول وهلة أنه ليس ثمة علاقة بين الحربين، فالحقيقة أنها كانت موجودة، ذلك أن تطورات الحرب بالمدافع قد أدت إلى ثقل يد الرقابة البريطانية المفروضة على الصحف، حتى أنه لم يكن أمام القائمين عليها سوى أحد خيارين، إما القبول بعسف الرقابة والتعرض لتعطيل جرائدهم أو على الأقل خروجها فى ثوب مهلهل بعد أن يقص الرقيب من مادتها ما شاء له التعليمات، وإما تناول موضوعات لا تخضع لأقلام الرقباء، وقد وقع اختيار الأهرام على النهج الثانى.

وليس من شك أن هذا النهج كان يُفقد الجريدة كثيرا من أسباب جاذبيتها، الأمر الذى نتبينه بسهولة من تقليب الأهرام خلال فترة الحرب، صحيح أنها خصصت بابا يوميا لأخبارها تحت عنوان «حروب الأمم»، غير

أن قارىء هذا الباب يندهش من أن جريدتنا حرصت على أن يغلب عليه ما تعلق بالحرب من اتصالات سياسية، أو أخبار ذات طبيعة عامة، بينما كانت الأهرام لا تتابع بنفس الدرجة أخبار الاشتباكات القريبة على قناة السويس أو تضع المقالات أو تكتب التعليقات عن مجريات الحياة الداخلية التى تأثرت كثيرا بظروف الحرب، وكان مطلوبا البحث عن بديل !

الحل فى تقدير المسئولين عن الأهرام كان إفساح صفحاتها لمعارك يمكن أن ينشغل الناس بها، وتعطى للجريدة بعض أسباب الجاذبية التى كانت تفتقر إليها، وكانت معركة الحجاب والسفور جاهزة لتعالج هذا الوضع، وهى معركة ما كانت تهدأ إلا لتشتعل.

يتضح ذلك من أنه قبل ما يزيد قليلا على عام من اشتعال تلك المعركة التى نتابعها هنا، عنيت الأهرام بأخبار تأليف جمعية أنسها بعض «الشبان الأذكياء»، على حد توصيفهم لأنفسهم، تحت اسم «جمعية تحرير المرأة برفع الحجاب»، ويقول أصحابها أن قاسم أمين كان أول من فكر فى إقامة جمعية تحت هذا الإسم، غير أنه «لم يتسن له إدراك غايته فأدركته يد المنون مأسوفا عليه»، وأن ما لم تكن تسمح به الظروف فى مطلع القرن تغير خلال عقد ونصف عقد بعد «أن تبدلت الأحوال وتغيرت الآمال وتقدمت البلاد تقدما محسوسا».

يقول أحد مؤسسى هذه الجمعية، واسمه محمود أحمد، أنها وجهت همها إلى رواج الفكرة فأرسل أعضاؤها خطابات صغيرة تشير إلى تأليفها إلى عدد من الشبان، وأنها بصدد وضع قانون لتبيان مبادئها وأغراضها والطرق الموصلة لتلك الأغراض، غير أنه يعترف بأن الفكرة قد لقيت مقاومة شديدة بدت فى الحملات الصحفية التى تعرضت لها، حتى أن أحد أعضائها، واسمه محمد متولى، يتحدث عن الخطابات التى دست على أعضاء الجمعية

بإسم مؤسسها والتى جاء فيها الادعاء بأنه وضع شروطا غريبة للانضمام إليها .. الإضراب عن الزواج لمن كان غير متزوج، أخذ الضمان الكافى على المتزوج برفع حجاب زوجته وبناته !

ولا ندرى مصير هذه الجمعية بعد تلك الأخبار التى نشرها عنها أعضاؤها فى الأهرام فى أواخر عام ١٩١٣، فقد انقطعت تلك الأخبار بعد وقت قصير، ربما لأن الفكرة لم تظهر إلى حيز الوجود، وربما لأن جريدتنا كانت منشغلة بما هو أهم، وهو الأمر الذى أصبح مختلفا بعد دخول مصر فى خضم الحرب، فقد أصبحت مثل تلك الموضوعات هى الأهم !

* * *

«من آدم إلى حواء الجديدة - رسائل مفتوحة إلى السيدة المصرية» سلسلة من المقالات وضعها قارىء إسمه حسن الشريف بدأت الأهرام نشرها فى يوم ٢٤ فبراير عام ١٩١٥، ومع أن الرجل لم يتعرض فى مقالاته الثلاثة الأولى من بعيد أو قريب لقضية الحجاب، غير أن تلك المقالات كانت الطلقة الأولى فى المعركة بين الحجابيين والسفوريين.

بدا حرص صاحب المقالات فى تجنب الخوض فى هذا الموضوع الحساس مما استهل به مقاله الثالث من قول «وعدتك أيتها السيدة منذ رسالتى الأولى بأن لا أمسَّ مسألة حجابك التى لاكتها الألسن وخاضت فيها الأقلام مدة طويلة وإنى ما زلت حافظا لوعدى وما جئتك اليوم ناصحا برفعه ولا قائلا ببقائه»، وهو وعد لم يستطع صاحبنا الاحتفاظ به طويلا.

السبب «خنساء الريف»، وهو إسم مستعار لإحدى قارئات الجريدة والتى بدأت بدورها يوم ١٠ مارس فى نشر سلسلة من المقالات تحت عنوان «من حواء إلى آدم الجديد»، لم تتهيب منذ أولها فى أن تخوض فى الموضوع الحساس .. الحجاب والسفور.

ففى جانب من هذا المقال تعرب عن رأيها أن «التربية هى أساس الأخلاق ونموذج الطهارة أرونى فتاة مهذبة أصرح لكم ألا تقيدوها بهذا الحجاب الشفاف الرقيق .. يعجبنى بنت الريف الفطرية بردائها البسيط ووجهها الصبوح وهى تحيى عارفيها بمنتهى السذاجة والإخلاص»، وقالت فى جانب آخر «إنى أصرح جهارا بأن هذا الحجاب كان واسطة لارتكاب موبقات تميد من هولها الأرض وتهتز لذكرها السماء» !

شجع ذلك «آدم» على أن يسقط تهيبه ويسفر عن حقيقة رأيه فى مسألة الحجاب والسفور، مما كان موضوع مقاله الرابع الذى ذهب فيه بعيدا إلى الدرجة التى دعا معها النساء إلى خلع الحجاب فورا وليس بالتدريج، وطالب بأن تطول فترة الخطوبة ليمتحن كل من الخطيبين حقيقة مشاعره تجاه الآخر، وهو يخرج من ذلك إلى التساؤل لو كان فى مخالطة الرجال للنساء مفسدة للطرفين «فلماذا حكم على المرأة بالسجن وترك للرجل كامل الحرية يتمتع بها كما شاء وشاءت أهواؤه؟؟» وحاول أن يدلل على فساد المقولة بأن سفور النساء فى الغرب دفعهن إلى الدعارة، وكان رأيه أن السبب ليس السفور وإنما سوء استخدامه، وخلص أخيرا إلى القول أنه لو لم يكن «فى الحجاب سوى سلب حرية المرأة لكفى ذلك لمحاربته والحرية حق طبيعى للأفراد».

وبدا حتى ذلك الوقت وكأن المعركة من جانب واحد .. جانب السفوريين، غير أن حدة المقال الأخير لحسن الشريف دفع بالحجابيين إلى دخول الميدان، كان أولهم موظف بالجامعة المصرية إسمه محمد رضا الذى تصدى لصاحب مقالات «من آدم إلى حواء الجديدة» فى مقال تحت عنوان «المرأة والحجاب» نشرتها له الأهرام فى عددها الصادر يوم ٢ أبريل.

أول ما فعله محمد رضا أن أعرب عن دهشته من الدعوة لترك الحجاب

فجأة، وهى دعوة مآلها الفشل فى رأيه «إذ العادات القديمة المتأصلة لا يتخلى عنها بمجرد دعوة أو نصيحة أو مقالة وقد قال علماء الاجتماع إن من أراد حمل أمة على ترك عادة قديمة متأصلة بسرعة فقد رام محالا»، واستهجن بعد ذلك الدعوة إلى طول معاشرة الخطيبين لما يترتب على ذلك من فساد، وسخر من فكرة مساواة الرجل بالمرأة «فهو الذى يسعى للكسب والنفقة على الزوجة والأولاد .. فهل من الحكمة أن نقول لمن هذا شأنه احتجب فى البيت وتنقب».

مداخلة أخرى للرد على نفس المقال من نصير للحجاب إسمه محمد طاهر المخزنجى الذى ركز على ما جاء فى قول حسن الشريف من أن الحجاب يمنع المرأة من التردد «على معاهد العلم والتجول فى البلاد ومن مشاهدة الآثار والسياحة فى الأقطار» فيستنكر ذلك بقوله لماذا يمنع الحجاب المرأة من ذلك «هل لأنه يحفظ لها حياءها وهو الذى يمثل ملاك الطهارة والعفة والحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة» !

دفع ذلك الشريف أن يعود مرة أخرى للميدان فى مقال خامس ليرد على الانتقادات التى وجهت إلى مقالاته السابقة، من حيث أطلق مجموعة من السهام ..

* السهم الأول وجهه إلى المتسائلين عن الأسباب التى لا تدعو إلى محاربة الرذيلة بسلاحين .. سلاح التربية وسلاح الحجاب، فيما جاء فى قوله «نحن نقول بل نحاربها بكل الوسائل على شرط أن لا يكون فيها ما يعود بالضرر على المجموع وهانحن نرى أبطال المحافظين ينصحون بمحاربة الرذيلة بالحجاب، وهو رذيلة أكبر منها؛ يطلبون أن تربى المرأة على مبادىء الحرية وأن لا نحترم حريتها، يريدون أن نعلمها العفاف وأن لا نعتقد فى عفافها، يرغبون أن نبث فى روحها الشرف والطهارة وأن لا نؤمن بشرفها

ولا بطهارتها، يودون أن نعهد إليها صلاح أبنائنا وأن نشك فى صلاحها، يرومون أن نعتبرها إنسانا وأن نسلبها أشرف مميزات الإنسان فيا الله هل هذه آراء قوم يعقلون؟؟» !

* انطلق السهم الثانى إلى ما ظل يقوم به دعاة المحافظة على الحجاب من القول أن البديل هو السفور على النمط الأوربى .. البديل فى رأيه السفور على نمط فلاحات القرى «ولا أظن أن هناك من يدعى أن الفساد منتشر فى القرى ونساؤها سافرات انتشاره فى المدن ونساؤها مقنعات محجبات».

* السهم الأخير وجهه إلى تذرع أنصار المحافظة على الحجاب بالأسباب الدينية فيما جاء فى قوله «وإذا كان الإسلام قد أمر بالحجاب فإنما أمر به فى القرون الوسطى ونحن اليوم فى القرن العشرين ويجب أن نراعى أحوال الزمان والمكان فى تطبيق أحكام الشرائع والقوانين».

وقبل أن يفرغ الشريف ما فى جعبته عادت خنساء الريف تدخل الميدان وتعقد ما يشبه التحالف، ولو على الورق، مع صاحب مقالات «من آدم إلى حواء الجديدة»، وهو التحالف الذى بدا من وصفها لحسن الشريف بأنه «الكاتب الديموقراطى الحر الذى رأيته يخوض عباب موضوعنا الخطير بقلم ثابت وجنان رزين وكأنه ميرابو يقف فوق رابية الحرية ويصيح: إلى الأمام»!

وإذا كان الشريف قد لجأ إلى توجيه السهام فقد قامت الخنساء برفع عقيرتها على نحو خطابى لافت بقولها: «تطالب النساء فى العالم المتمدن بانتخابهن ليحزن مقاعد النواب وليظهرن للعائلة البشرية أنهن كفؤ لأخطر المراكز، وفى جمهورية جزيرة موناكو -بقرب إيطاليا- تزاحم المرأة ابن آدم فى الرئاسة. ونحن هنا إذا ما طالبنا بحق ثانوى وأعنى محو تلك الخرافة البالية صاحوا فى وجوهنا: لسنا فى أوربا. سلوا إسماعيل باشا فى قبره

ينبئكم أن مصر قطعة من أوربا. وسلوا أغاخان فى كتابه (المرأة فى الإسلام) يجيبكم: عاشت المسلمات ٦٠٠ عام من التاريخ الهجرى سافرات الوجوه».

وتنهى خنساء الريف هذه الخطبة الحماسية بقولها: «كفى عبودية ٧٣٤ سنة إذ نحن الآن فى عام ١٣٣٤ هجرية. كفى رقا سبعة قرون ونيفا، كفانا استعبادا ٢٦٠٥٧٠ يوما، وكل يوم ٢٤ ساعة» !

ولم تكتف صاحبة مقالات «من حواء إلى آدم الجديد» بالخطب الحماسية، أو بالإعراب عن تأييدها لحسن الشريف، وإنما انبرت للهجوم على منتقديه فانتقدت رضا أفندى لأنه خرج عن آداب الحوار لأنه «أنزل عليه صواعقه وجام غضبه وحاول أن يحط من كرامته الذاتية متخيلا أن هذا هو الفوز».

كان هذا بعض ما جاء فى المقالة الرابعة للخنساء ازدحم بعدها ميدان المعركة واختلط الحابل بالنابل، الأمر الذى بدا معه وكأنه قد أسقط فى أيدى القائمين على تحرير الأهرام ..

* * *

من زحام المقالات الشديد حول قضية السفور والحجاب التى اكتظت بها الأهرام خلال المرحلة الأخيرة من المعركة الممتدة بين منتصف أبريل ومنتصف مايو، يمكن تسجيل عدد من الملاحظات:

١) إن عددا غير قليل من النساء شاركن فى المعركة، وأنهن جميعا وبدون استثناء آثرن التوقيع بأسماء مستعارة: المرأة الجديدة، آنسة بالضواحى، الأسيوطية، زهرة الربيع، قارئة، مقنعة، وكان مثل هذا التخفى أمرا طبيعيا فى ذلك العصر، وقد دخل أغلب نساء هذا العصر مجال العمل العام متخفيات على هذا النحو، رغم أن أغلبهن كن يطالبن بالسفور !

ومع ذلك فليس من الممكن التيقن من احتمال أن يكون هناك بعض الرجال قد تنكروا تحت مسميات أنثوية، ولعلهم إذا كانوا قد فعلوا ذلك فربما لتوفير مزيد من أسباب الجاذبية للقارىء الذى قد يقبل على قراءة ما تكتبه واحدة من تلك المخلوقات الغامضة، كما كان ينظر رجال هذا العصر للمرأة، وربما لاصطناع مزيد من أسباب التخفى !

٢) حذا بعض الرجال المشاركين فى الجدال حذو النساء فى استخدام الأسماء المستعارة، وكانوا فى الغالب من الداعين إلى سفور المرأة: ع.ر.، ابن الحضر، ز.واقد، بالمقابل فقد كان أبناء حزب الحجابيين يسفرون عن أسمائهم دون ما وجل؛ مصطفى صبرى، محمود كمال، عبد السميع عرابى بطنطا وآخرون.

ويمكن أن نستنتج من هذا أن المناخ العام لم يكن مناصرا للسفوريين، الأمر الذى رغبوا معه فى تجنب الانتقادات التى يمكن أن توجه إليهم من المحيطين بهم فيما لو كشفوا عن أسمائهم الحقيقية.

٣) فى جو المعركة العام كثيرا ما كانت تنشب معارك جانبية، كأن يختار أحدهم ما كتبه آخر وينبرى للرد عليه، متخذا نفس أسلوبه فى التخفى، حدث هذا أكثر من مرة وإن كان أظهرها تلك المعركة التى نشبت بين من أسمت نفسها بزهرة الربيع وبين من أسمى نفسه زهر الربيع (!)

٤) بينما غلبت على السفوريين الثقافة الغربية فقد بدت غالبية الحجابيين من أنصار الثقافة السلفية، الأمر الذى اكتشفناه من الاستشهاد الواسع من جانب الأولين بكتابات أوربية، ومن جانب الأخيرين بالعودة إلى كتب التراث.

وتقدم خنساء الريف، رغم التسمية التى اختارتها، نموذجا مثاليا لأصحاب الثقافة الغربية، كان أظهر أمثلته مقالها الأخير الذى نشرته

الأهرام فى ١٣ مايو تحت عنوان «نشيد المارسيليز للسفور»، مما جاء على شكل قصيدة منثورة نختار هنا بعض مقاطعها ..

تقول فى أحد هذه المقاطع «لست أبغى شهرة كرهها روسو ولا ثروة نبذها تولستوى ولا ألقابا هجرها غلادستون ولا أوسمة رفضها هربرت سبنسر .. لى آمال وهى تحرير ربات الحجال»، وتقول فى مقطع آخر «مسكينة هى حواء ذليلة هى المرأة المصرية محكوم عليها من فرعون القاضى الغشوم بالسجن المؤبد مدة الحياة فمن الدار إلى جنة أو نار، من المنزل إلى المدافن، من القصر إلى القبر، ومن الرمس إلى جحيم أو فردوس وليعاقب الله الظالم. كما هوجم الباستيل وكسرت أبوابه فى القرن الثامن عشر وخرج منه معتقلو السياسة والصحافة والآداب يجب أن يفتح الباب للمرأة بسلام».

وتقول فى مقطع أخير «أليس ممكنا يا فتاة أن تنزعى القناع فتهديه لدار الآثار وأن يكون تذكارا سيئا!! شبيهتك يابنتى جان دارك رفعت الحصار عن أورليان رغم جراحها وتلك أمكم كليوبترة أسرت القائد الرومانى مارك أنطون. أنا لست أطلب منكن أن تقدن جيش الحلفاء وتطردن الجرمان حتى الحدود ولا أن تأسرن معبود البروسيان المارشال هندنبورغ. الأمر مناورة سلمية ضد الحجاب ونشيد المارسيليز للسفور وكن على ثقة بأنى سأمضى شروط الصلح شريفة» !

ونعود إلى ساحة الوغى الكلامية فنلاحظ تكرار الحجج التى كان يلقيها كل من الطرفين حتى أن الأهرام عندما قررت إنهاء الحرب وإغلاق الملف كانت حجتها فى ذلك أن «كل فريق سرد كل ما عنده من الحجج وصار التكرار عبثاً وخرج بعض المتناظرين عن حد المناظرة» !

نلاحظ أيضا أنه مع عديد من الصياغات الحماسية، والتى تكشف عن مستوى أدبى رفيع لغالبية المشاركين، فإن جملة حجج الطرفين كانت

محدودة ومحددة !

السفوريون رأوا أن خلع الحجاب وراء سر تقدم الأمم وهى الحجة التى أدلت بها «المرأة الجديدة» فى قولها «الأمم الغربية لم تتقدم هذا التقدم الباهر إلا بفضل نسائهن الراقيات المهذبات، فإذا أمعنا النظر فى الفارق العظيم بين المرأة الشرقية والمرأة الغربية لوجدنا من أول وهلة أن أهمها سفور المرأة الغربية وتمتعها بحريتها وتحجب المرأة الشرقية بالقناع وانزوائها عن عالم الحياة الاجتماعى».

رأوا أيضا أن الحجاب وراء بوار سوق الزواج، فأغلب الشبان يحجمون عن دخول قفص الحياة الزوجية ليس لسبب سوى عدم السماح لهم برؤية زوجات المستقبل، وكما قال حسن الشريف أن «الفتاة المصرية لا تحصل على الزواج لأن الشاب المتعلم لا يرضى أن يتزوج ممن تسىء تدبير منزله وأحوال معيشته»، وتطالب «آنسة بالضواحى» كل شاب وفتاة «أن لا يتزوجا ولا يعقد لهما قران إلا إذا رأيا بعضهما حتى يمكنهما المعاشرة فى السراء والضراء على سنة الدين والشرع».

رأوا ثالثا أن الحجاب لم يمنع انتشار المنكرات «بدليل ما نرى من فتك لعلل الأخلاقية فى جسم هذه الأمة المسكينة المتمسكة بالحجاب أشد التمسك» !

رأوا أخيرا أن الحجاب يقف عائقا دون إتمام الفتاة لتعليمها فيما سجله ع.ر. بقوله «كل ما نريده أن لا تحرم المرأة من حظها من العلم الصحيح والتربية الحقة وإزالة العقبات من هذا الطريق والحجاب فى مقدمتها. والمرأة متى ارتقت أول درجة من درجات السفور أدركت عظم منفعته وأخذت هى تسعى للوصول فيه إلى حج الكمال المعقول» !

على الجانب الآخر وقف الحجابيون بحججهم ..

أولاها: تفنيد قول السفوريين بأن الحجاب يحول دون الفتاة والتعليم، فعلى حد قول إحداهن «من ذا يقول بأن المرأة محجوزة عن العلم بالحجاب؟ وهل الحجاب يمنع من ذهاب البنات إلى المدارس محتشمات متأدبات. وهل يمنعهن من حضور المحاضرات العلمية وسماعها؟ هل يمنعهن من تأسيس جمعيات وأندية علمية يجتمعن فيها بعيدات عن الرجال لهن نهضة نسائية خاصة بهن؟».

الثانية: والتى ألحوا عليها ما ينتج عن رفع الحجاب من مفاسد، فقد قالت إحداهن أن رفع القناع «سيكون سببا فى إسقاط المرأة فى مهاوى الذل والعبودية وفى انتشار الفسوق والعصيان»، وقالت أخرى وقعت بإسم المقنعة أن «اليوم الذى ترفع فيه الفتاة النقاب عن وجهها لهو اليوم الذى فيه تبتدىء الرذيلة بأن تدوس بأقدامها البقية الباقية من الفضيلة والحياء».

الثالثة: أن المرأة خلقت للبيت ولا تفكر لحظة فى «تحرير نفسها من ذلك الأسر المحبب إليها فإنها عندما تفرغ من تربية أولادها وغرس مبادىء الشرف فى نفوسهم فأنها لا تهتم بأن تلعب دورا فى العالم الخارجى وأنى لها الزمن؟».

وبعد أن استنفد كل طرف حججه أصدرت جريدتنا إعلانا يوم ٢٧ مايو جاء فيه «فتحت الأهرام صدرها للكتاب والباحثين فى تعليم المرأة وفى السفور والحجاب وتركت هذا الباب مفتوحا حتى استنفد كل كاتب ما فى جعبته ولم تبق زيادة لمستزيد وعندنا من الرسائل فى هذا الموضوع ما يربو عدده على مائة رسالة لا يتسع المقام لنشرها فنحن نشكر كاتبيها ونعتذر إليهم عن إهمالها لأنا أقفلنا من اليوم هذا الباب» !

الفصل العاشر

المرأة المصرية وثورة ١٩١٩

ما جرى يوم الأحد ١٦ مارس عام ١٩١٩ من قيام مظاهرة ضمت أكثر من خمسمائة سيدة وفتاة لتصب فى مجرى الثورة التى كانت قد تفجرت بمظاهرة طلاب الحقوق قبل أسبوع بالضبط، أثار إعجاب المصريين وأوقع الدهشة بغيرهم، فلم يكن هناك من يتوقع أن تخرج ربات البيوت من خدورهن ليسهمن فى الحركة الثورية على هذا النحو المفاجىء.

وعندما تكرر ذلك بعد أربعة أيام، ووصل الأمر إلى صدام بين المتظاهرات والقوات البريطانية، فيما ترويه لنا الدكتورة لطيفة سالم فى كتاب تحت عنوان «المرأة المصرية والتغير الاجتماعى ١٩١٩-١٩٤٥»، تحول الإعجاب والدهشة إلى إعادة طرح موضوع دور «المرأة المصرية فى حياة الأمة»، وهو العنوان الذى اختارته الأهرام لمتابعة تلك القضية، وكان الطرح هذه المرة مختلفا.

قبل ذلك بأقل من أربع سنوات، وفى خلال ربيع عام ١٩١٥، كانت قد طرحت هذه القضية على شكل معركة بين السفوريين والحجابيين، كما سبق الذكر، وكانت معركة متجددة أكثر منها جديدة، فقد سبق وأن عرفت طورا منها مع بداية القرن بعد أن نشر قاسم أمين كتابيه المعروفين .. تحرير المرأة والمرأة الجديدة.

وبينما كانت المرأة غائبة فى الطور الأول من هذه المعركة التى دارت أساسا بين الرجال، فإنه كان لها حضور فى الطور الثانى، وإن تم ذلك الحضور على استحياء شديد، فيما لاحظناه من أنها فى كتابتها لبعض المقالات قد آثرت التخفى تحت أسماء مستعارة كان أشهرها «خنساء الريف» !

ونصل للطور الثالث الذى علم المصريون منه أخبار تلك المظاهرات، كما عرفوا فى ذات الوقت، أن الذى دبر للمظاهرة الأولى وقدنها كن ينتمين إلى الطبقة العليا، أو من وصفهن شاهد معاصر فى مذكراته بأنهن من «عقائل العائلات الراقية» اللاتى «سرن فى أنحاء القاهرة هاتفات بحياة الحرية والاستقلال والناس من حولهم يصفقون لهن ويهتفون والنساء من نوافذ بيوتهن يزغردن ويهتفن فكان ذلك منظر جميل رهيب يأخذ بمجامع القلوب»!

وقد عبرت الأهرام عن دهشتها عندما لاحظت أن أصحاب بعض الأقلام المحافظة فى صحف أخرى، وإن لم يستطيعوا الاعتراض على هذه المظاهرة الوطنية، فانهم انتقدوا الجمهور الذى اجتمع حول مواكب السيدات، وأنهم كانوا يفضلون أن يخلى الرجال الشوارع والطرقات جميعا لمرور تلك المواكب، باختصار أراد هؤلاء أن يخرجن من خدورهن فى البيوت ليتحول الشارع الذى يسرن فيه إلى خدر كبير !

وانتقدت صحيفتنا ذلك بقولها أن هؤلاء لازالوا ينظرون إلى المرأة بصفتها أنثى وطالبتهم بأن يعدلوا النظرة إلى كونها «عضواً فى الهيئة الاجتماعية المصرية. فلا ننظر إلى مواكب السيدات إلا من هذه الوجهة الاجتماعية أى وجهة رقى المرأة المصرية ومجاراتها للرجال ومسايرتهم فى منازع الحياة وأطوارها. نسأل الله الهداية والرشد- آمين» !

تحمس قراء الأهرام لهذا التوجه من جريدتهم وانهالت خطابات التأييد عليها؛ أولها خطاب وصلها من قارىء وقع باسم «مختار»، وجاء على شكل رسالة مفتوحة «إلى السيدة المصرية» أنهاها بقوله «ها أنت قد خطوت الآن فى سبيل إظهار عملك مائة عام، كما قال أحد الفرنجة، فالتمس إليك بذلك القلب الذى خشع اليوم لعاطفتك الوطنية أن تحثى السير ولا

ترجعي فيه. واعلمي أنك خطوت أوسع خطوة نحو السبيل المقصود فلا تعودى عما بدأت بل تمى السير وقد أصبحنا جميعا نحمل كل احترام وتبجيل نحو هيئتك الظافرة» !

الخطاب الثانى كان من فردوس توفيق «كريمة المرحوم اللواء محمد توفيق باشا سر ياور خديوى»، وتصدر أهميته أنه لأول مرة فى معركة تدور حول المرأة توقع سيدة باسمها كاملا، على عكس ما كان يجرى فى المعركة بين السفوريين والحجابيين، وقد شجع ذلك سائر السيدات على الحذو حذو فردوس فأسقطن بذلك الحجاب الذى طالما فرض حتى على أسمائهن !

خطاب فردوس امتلأ بالعبارات الحماسية التى كانت تناسب المناخ العام الذى صنعته الأحداث الثورية فيما بدا عندما خاطبت المرأة المصرية فى مستهله بقولها «لقد قمتم بالواجب عليكم نحو وطنكم العزيز وبرهنتم بأجلى بيان على غيرتكم وحميتكم فلم تقف بكم وطنيتكم عند حد القول بل تعدت إلى ما هو أرقى وأسمى».

وكأنما كان خطاب كريمة سر ياور خديوى إشارة بدء انهالت بعده خطابات من السيدات والفتيات المصريات على الجريدة، وقد وقعن فى الغالب بأسمائهن، الأمر الذى يدعو إلى محاولة البحث عن الأسباب التى أدت إلى ذلك التغيير . .

* أهم هذه الأسباب فى تقديرنا تزايد اشتراك المرأة فى العمل السياسى، خاصة وقد فرضت فى ذلك الوقت بعض نماذج منهن نفسها على الساحة كان أشهرها السيدة هدى شعراوى التى دبرت لمظاهرة ١٦ مارس والسيدة صفية زغلول التى صممت على الإبقاء على بيت زعيم الثورة، الذى عرف ببيت الأمة مكانا لعقد اجتماعات زعامة الوفد، رغم التهديدات التى تلقتها من السلطات العسكرية، فقد أدى هذا التزايد إلى خلق مناخ عام شجع سائر

السيدات، خاصة من بنات الطبقة العليا والوسطى على الاشتراك فى العمل السياسى.

* السبب الثانى شرحته الأهرام فى مقال افتتاحى طويل فى العدد الصادر يوم الثلاثاء ١٥ أبريل عام ١٩١٩، نبهت فيه إلى أن رقى الأمم مرهون بأعمال المرأة «وحديث النساء النابغات يملأ التاريخ حتى تاريخنا الطافح بذكرى العالمات والفقيهات والشاعرات وربات المتاجر والأعمال والسياسة وشؤون الملك، ومنذ سكونه عن ذكرهن كان بدء الجمود ثم الانحطاط».

تلك الحقائق، كما تقول الأهرام، أدركها الجميع «فأخذنا بأسباب الرقى وعرفنا مقام المرأة فى الهيئة الاجتماعية فتوسلنا بالمدارس لنصل بالرجال إلى المقام العالى ولنصل بالنساء إلى مقام الرجال ولنجعل شطرى الشعب متساويين حتى يكون بناء العائلة سليما وجسم الأمة قويا سليما».

وقد دفعت كثرة تلك الخطابات الأهرام إلى أن تخصص لها مساحة فى الصفحة الأولى تحت عنوان «صوت المرأة المصرية» كشفت فيها عن كثير من أوضاعها وقتئذ.

كان أهم ما كشفته هو طبيعة الشريحة الاجتماعية التى انحدر منها أغلب هؤلاء، فإحداهن وهى ناظرة مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بالمحلة وقعت بالأحرف الأولى من إسمها وأردفت بأنها حرم أحمد أفندى إبراهيم حموده، وأخرى وقعت بإسمها «نفيسة الشافعى - حرم السيد حامد منصور المدرس بالمدارس الثانوية»، وثالثة اسمها بديعة بشاى «إحدى خريجات الكلية الأمريكانية بمصر»، ورابعة هى «كريمة المرحوم حسين محمود الكرسلى المحامى»، وسادسة إسمها عائشة فرج من المطرية، وسابعة حكيمة إسمها لبيبة حفظى وثامنة اسمها تماضر صبرى من خريجات المدرسة السنية،

وتاسعة وعاشرة .. وكلهن جئن من نفس الطبقة .. الوسطى الصغيرة والمتوسطة، كما أنه من الواضح أن جميعهن نلن قسطا من التعليم مما بدا سواء فى نصاعة الأسلوب الذى كن يكتبن به، أو فى حرصهن على الإشارة إلى وضعيتهن التعليمية .. كخريجة الكلية الأمريكانية بمصر التى سبقت الإشارة إليها، والأخرى التى وقعت باعتبارها خريجة المدرسة السنية .

والملاحظ أن أغلبهن أخذهن الحماس للدور الجديد الذى افترضن أن على المرأة أن تقوم به ..

فقد كتبت إحداهن، والتى وقعت باسم «عزيزة» تقول أن المصريين رأوا من المرأة ما أحيا الأمل وثبت القدم «رأوها تسير فى الشوارع فى مظاهرتها غضبى مما حل بأخيها .. وخرجت بعد أن أتاها حديث سفر الوفد واستجلت تلك المشاعر الضافية فأنارت وسطعت وأبهرت الناظرين .. كانت تقول كأننا فى حفلة زفاف مصر إلى الحرية وكان يخيل إليها أنها تطير فى الفضاء فرحا» !

بنفس الدرجة من الحماس كتبت الآنسة بديعة بشاى عن الحماسة الوطنية والشجاعة الأدبية التى أظهرتها المرأة «فنلنا بذلك من المديح والتشجيع ما رأينا. أفلا يجدر بنا والحالة هذه أن نحث أخواتنا الوطنيات على السعى معنا لتكميل ما بدأنا من إحياء الشعور الخالص المطلوب من المرأة المصرية نحو الوطن المحبوب ألا فليحى الوطن ولتحى الشبيبة المصرية» !

دفع ذلك أحد قراء الأهرام، واسمه حسن الشريف، أن يغتنم الفرصة ويعرب عن شماتته من جماعات المحافظين الجامدين، على حد تعبيره، الذين وقفوا دون تحرير المرأة، وكان الرجل أحد الشخصيات البارزة فى المعركة التى دارت قبل أربع سنوات بين «الحجابيين والسفوريين»، وقد خاضها منتميا إلى الأخيرين.

من بين ما جاء فى مقاله الذى نشرته الأهرام يوم الأحد ٢٧ أبريل عام ١٩١٩ تحت عنوان «بين القديم والحديث» قوله أنه «من قبيل المجهود الضائع بل العبث المطلق أن يقف الجامدون والمحافظون فى طريق تيار الإصلاحات الاجتماعية، وأنه من الخطأ أن يذهب التطير ببعض المفكرين إلى أن يرموا العقل المصرى بالجمود وحب المحافظة على القديم مهما كان فاسدا».

وقد أشعلت هذه المقالة لهيب النيران التى ظن كثيرون أنها قد خمدت، وانبرى الآخرون إلى الرد، ولم تجد الأهرام مندوحة من نشر ردودهم، خاصة وأنه كان فى طليعتهم صاحب قلم كبير هو الأستاذ محمد فريد وجدى الذى اشتهر بكتاباته الإسلامية ..

* * *

تحت عنوان «المرأة المصرية - أمس واليوم» نشرت الأهرام أول مقالات فريد وجدى يوم ٢٩ أبريل، وقد نجح الرجل أن يصنف المرأة المصرية تصنيفا اجتماعيا، وخلص من ذلك إلى نتيجة مؤداها أن المرأة المصرية «إلا الطائفة الممتازة من سكان المدن سافرة الوجه»، وقد جاء هذا التصنيف على النحو التالى:

* المرأة من بنات الطبقة الدنيا «سافرة الوجه تشاطر زوجها العمل فى الزراعة والتجارة وتخالط الرجال وتجالسهم وتنتقل من بلد إلى بلد مشيا على الأقدام أو على مطية تحمل بضاعتها إلى أسواق البلاد وتجلس متمكنة فى السوق فتبيع وتجادل ويعلو صوتها على أصوات الرجال. ثم تحمل ما بقى من بضاعتها وتعود إلى بيتها لتعاود عملها فى أسواق أخرى فى اليوم التالى. وفى المدن من هؤلاء البائعات السافرات ألوف مؤلفة .. وهذه الطبقة السافرة المخالطة للرجال تبلغ ثمانية أعشار المصريات».

* فى درجة أعلى من السلم الاجتماعى رصد فريد طبقة أخرى أسعدها الحظ بشىء من سهولة العيش «فتسترن بالحجاب إشارة إلى الترف والترفع» غير أن ذلك فى تقديره لم يجعلهن قعيدات دورهن «فتراهن طول النهار وهزيعا من الليل غاديا رائحات يغشين الأسواق مشتريات ويترددن على صاحباتهن زائرات ويمشين وراء الجنائز مشيعات ويحضرن الأفراح والمآتم مشاركات».

* أما فى قمة هذا السلم فتوجد «ساكنات القصور وربات الخدور وسع الله عليهن فى العيش فآثرن الترفع عن مجالات العامة واخترن التوقى من الأعين فوضعن على وجوههن النقاب وخفن على نفوسهن الزلل فامتنعن عن الاختلاط بالرجال».

ويبدو أن الأستاذ محمد فريد وجدى قد استشعر أن مقالا واحدا لا يكفى لكسر موجة الحماس التى غطت البلاد داعية إلى مزيد من مشاركة المرأة فى الحياة العامة، فكتب سلسلة من المقالات بلغت أربعة تحت عنوان «كلمات للمرأة المصرية»، وقد وجدت الأهرام أن عليها نشرها جميعا عملا بحرية الرأى، الأمر الذى دعا الرجل إلى أن ينوه بذلك فى مقدمة مقالاته فيما جاء فى قوله: «أفسحت الأهرام كعادتها فى كل شىء نافع مجالا لأقلام الكاتبين فنشكر لها هذه العناية» !

الجانب الأكبر من المقال الأول خصصه فريد لمهاجمة السلوك الرجولى الذى يقوم على «التدليس على المرأة والتلاعب بها فى مدى السنين القليلة التى تصلح فيها لذلك والفطرة النسوية تقبل الانخداع أو تضطر لقبوله فى أكثر الأحيان».

واعتبر وجدى أن إغراق الرجل فى ذكر حقوق المرأة إلى الدرجة التى جعلها مذهبا اجتماعيا إنما يشكل وجها من وجوه هذا التدليس، إذ كانت

نتائجه «شرا أشد على المرأة من كل شر وقع منه عليها. فإنها ما لبثت أن رأت نفسها مسترجلة تعمل معه فى المعامل وتكد طول النهار وطائفة من الليل فى المحاولات الجسدية المضنية لتكتسب قوتها اليومى».

ويصب جردلا من الماء البارد على الحماس الذى أبدته المرأة المصرية لتشارك فى الحياة العامة عندما يخلص فى هذا المقال بأن القائلين بخروج المرأة إلى ميدان الحياة والعمل لا يريدون لها سوى ارتياد «النوادى والمجتمعات والملاعب والمتنزهات والحفلات المتألقة بالأنوار والمجالس التى يأخذ سناها بالأبصار. ويريدون إذا حدثت مظاهرة أو اختلط الوضيع بالرفيع فى أمر عام أن يتوسطن تلك الجموع هاتفات وملوحات بالرايات ويموه هؤلاء على المرأة أنها بذلك ستخرج من ظلمات الجحيم إلى أنوار النعيم» !

فى مقاله الثالث أفصح محمد فريد وجدى، وبصراحة تامة، عن رأيه فى قضية مساواة الرجل للمرأة، فبحث فى الجذور التاريخية لتلك الظاهرة وكيف أنها نشأت فى عهد الثورة الفرنسية «وتشبث بها بعض النساء وساعدهن فى ذلك جمهور ممن يحب أن يتملق لهن»، ثم انتقل إلى تسفيه ذلك، خاصة بعد أن «قتل العلماء هذه المطالب علما وقلبوها على كل وجه وأدركوا البواعث النفسية لها وكتبوا فى النعى عليها ودحضها ما لا يحصى من المؤلفات».

استشهد على ذلك بما كتبه الفيلسوف الفرنسى أوجست كونت فى كتابه «النظام السياسى»، وكان مما جاء فيه «نحن بدون أن نناقش أنفسنا مناقشة تلك الخيالات المؤخرة للرقى (يريد تسوية النساء بالرجال) يجب أن نحس بأنه لو نال النساء يوما من الأيام هذه المساواة المادية التى يتطلبها لهن الذين يزعمون الدفاع عنهن بغير رضائهن فإن ضمانهن الاجتماعى يبطل على قدر ما تفسد حالتهن الأدبية». ويستخدم كل وسيلة لبث النفور فى

قلوب الناس من دعاة مساواة المرأة بالرجل باتهامهم بأن الزواج «ليس فى نظرهم إلا رمزا باطلا وهو عندهم مضحك وعتيق ككل الرموز الدينية» !

ولم يكن فريد وجدى وحيدا فى هذا الميدان فقد شاركته بعض النساء كان منهن «زينب هاشم» التى كتبت تحت عنوان «رجاء مصرية إلى أخواتها» تطلب من كل مصرية «يجرى فى عروقها دم العفاف والشرف أن تبرهن على حبها لوطنها بالمحافظة على آدابها الشرقية والتمسك بجميع عاداتها» !

* * *

لم تجد مقترحات محمد فريد وجدى وزينب هاشم بإرجاع المرأة المصرية إلى خدرها استجابة تذكر، فقد كانت الحركة النسائية هذه المرة أقوى من محاولات وضع العصى فى عجلاتها التى دارت ..

بدا ذلك من الحركة النشطة التى قامت بها المصريات لإنشاء عدد من الجمعيات النسائية، وهى الحركة التى بدأت بالقاهرة ثم انتقلت إلى الأقاليم.

أشهر الجمعيات التى نشأت فى خضم أحداث الثورة كانت «جمعية المرأة الجديدة» التى كتبت سكرتيرتها إلى «صاحب الأهرام» رسالة فى ٢٠ أبريل عام ١٩١٩ توضح فيها ظروف قيام هذه الجمعية وأهدافها .. جاء فى هذه الرسالة:

«فكر جمع من السيدات فى تأليف جمعية منهن للسعى فى خدمة الوطن المفدى بكل وسيلة يرينها نافعة وحقة وقد جعلت همها الأول جمع الإعانات لمنكوبى الحوادث فى الحالة الحاضرة (تقصد ضحايا الثورة) ثم يعقب ذلك العمل على ترقية المرأة المصرية وإعلاء شأنها. وقد انتخب من بين أعضائها رئيسة عاملة وسكرتيرة وأمينتان للصندوق وتقرر بإجماع الآراء تسمية هذه الجمعية (المرأة الجديدة)».

تضمنت هذه الرسالة أسماء مؤسسات الجمعية وكانوا جميعا من بنات أو زوجات البكوات، وقد حرصت سكرتيرتها على أن توافى الأهرام أولا بأول بأسماء العضوات الجديدات اللاتى كن يلتحقن بها.

والملاحظ أن عديدين كتبوا يرحبون بالجمعية الجديدة، خاصة وأنها قد أخذت على عاتقها دورا فى الثورة يليق بالمرأة، فلم يعد هذا الدور مقتصرا على القيام بالمظاهرات وتسيير المواكب، وإنما أصبح دورا مؤسسيا يقوم على نجدة الثوار الذين عانوا من عسف السلطة العسكرية.

كان من المرحبين صاحب رسالة طويلة نشرتها الأهرام يوم ٢٦ أبريل وقع عليها بإسم «ابن قيس» والذى اعتبر قيام هذه الجمعية من عوامل المجد لمصر «فسرن أيتها السيدات إلى الأمام وارفعن علم الإخلاص والمحبة دائما فى كل مشروع تشرعن فيه» !

فى نفس الشهر، أبريل عام ١٩١٩، قامت جمعية جديدة تحت إسم «جمعية فتاة مصر الفتاة»، وهى وإن لم تكشف عن أسماء عضواتها، مثل سابقتها، غير أنه يفهم من أدائها وأهدافها، أنها قامت على أسس مختلفة عن جمعية المرأة الجديدة، فالواضح أن أغلب عضواتها لم يكن من زوجات أو بنات الأعيان، هذا من جانب، وكن من الشابات اللاتى دفعهن حماسهن، وظروف الثورة من جانب آخر، على أن يلجوا باب الخدمة العامة.

يتضح ذلك من الرسالة التى بعثت بها رئيسة الجمعية ووقعتها بالأحرف الأولى من إسمها س.ع. محمد ونشرتها الأهرام جاء فيها أنها اجتمعت مع قريناتها وقررن إنشاء جمعية بهذا الاسم «تعمل لمطلق الخير»، وقد رأت مؤسسات الجمعية بعد أن نظرن إلى ما حولهن أن «أول مستحق للانتفاع طائفة الفقراء، وهم السواد الأكبر من الأمة. وأن كل ما يعوز الفقير هو الرخص والتسهيل فى الملبس والمطعم والمأوى والوقاية، وأن يؤخذ بيده إلى

طريق العمل حيث توضع على أسبابه».

فى الشهر التالى، مايو، بعث وكيل الأهرام فى الغربية خبرا مؤداه أنه قد تم فى طنطا «تأليف جمعية أدبية وخيرية من السيدات المصريات المسلمات والقبطيات للسعى فى ترقية المرأة المصرية فى العادات والأخلاق والآداب وإعانة البائسين والبائسات ونحو ذلك من الأغراض الخيرية وقد دعيت جمعية (اتحاد وترقى المرأة المصرية بطنطا)»، وعلى خلاف الجمعية السابقة كشفت عضوات هذه الجمعية عن شخصياتهن! زوجة محامى كبير، حرم مأمور البوستة، حرم وكيل المديرية، حرم طبيب .. العضوة الوحيدة التى قبلت بوضع اسمها عائشة نصار ناظر مدرسة البنات الأولية، ويبدو أنها قد فاتها قطار الزواج ولم تكن حرماً لأحد !

ولم يمر انتشار الجمعيات النسائية على هذا النحو دون تعليق، فمرة أخرى يظهر النقاد والمؤيدون ..

الأستاذ فؤاد أبو السعود كان فى طليعة النقاد حيث نشرت له الأهرام فى أواخر مايو مقالا تحت عنوان «عصر الجمعيات النسائية» اتهمها فيه أنها ليست «غير أمكنة لسمر السيدات يقتلن فيها الوقت بما لا يجدى ولا ينفع»، وأعلن أنه أول من يستهجن قيامها وناشد المرأة المصرية أن تقلع عن تلك المظاهر وأن تتمسك بالثابت المفيد «فهو أنفع ما يكون لرقيك، وفى أمثالنا العامية قولهم (يابخت من بكانى وبكى علىّ)» !

بالمقابل، أفسحت الأهرام مساحة أشد اتساعا لمؤيد لتلك الجمعيات، والحركة النسائية عموما، وهو الأستاذ حسن الشريف، الذى كتب تحت عنوان «الجمعيات النسائية فى مصر» ينصح بإقامة اتحاد بين تلك الجمعيات لتستطيع أن تحقق من الأعمال والمشاريع «ما تقنع به المترددين وتسكت المتخرصين والمستهترين»، ولم يخش الرجل أن يعرب فى مقالته الطويلة عن

الإعجاب والثناء على الحركة الداعية إلى انتشار مثل هذه الجمعيات داعيا الذين يعرفون مكانة المرأة ألا يضنوا عليها بالمال وناصحا المحافظين « ألا يتسرعوا في الحكم وأن ينتظروا بصبر ما ستجنيه الأمة من الخير على أيدي ملائكة الرحمة .. وليس من العار أن تشترك النساء في خدمة الأوطان وإنما العار كل العار على أمة تريد أن يبقى نصفها عاطلا مشلولا »، ونعتقد أنه لا يزال حتى يومنا هذا دعاة العطالة وشلل المرأة وتحت دعاوى مختلفة.

الفصل الحادى عشر

المرأة فى دار الإنابة

مظاهرة يوم الأحد ١٦ مارس عام ١٩١٩ من قيام مظاهرة ضمت أكثر من خمسمائة سيدة وفتاة لتصب فى مجرى الثورة التى كانت قد تفجرت بمظاهرة طلاب الحقوق قبل أسبوع بالضبط، ولم يكن ذلك سوى بداية لاشتغال المرأة المصرية بالعمل السياسى، الأمر الذى رصدته الأهرام فى متابعتها ليوميات الأحداث الثورية ..

ففى يوم ١٨ نوفمبر عام ١٩١٩ وفى إطار المشاركة فى الاحتجاج على لجنة لنر اجتمع «نخبة من السيدات المصريات فى ميدان الحلمية الجديدة وركبن فى نحو عشرين عربة طفن بها فى أنحاء القاهرة هاتفة لمصر والحرية والاستقلال والوفد المصرى ورئيسه وبسقوط لجنة ملنر»، وفى يوم ١٣ من الشهر التالى ولنفس الغرض «اجتمع عدد عظيم جدا من السيدات المصريات بالكاتدرائية المرقسية لتأييد مقاطعة هذه اللجنة الاستعمارية والاحتجاج على قدومها لمناوأة الأمة فى مطلبها الحق المشروع والإصرار على التمسك باستقلال مصر التام».

فى ١٦ يناير عام ١٩٢٠، قامت السيدات المصريات بمظاهرة أخرى بدأت من ميدان المحطة إلى لوكاندة شبرد وهناك «هتفن لسينوت بك حنا المقيم بها وللوفد المصرى ورئيسه وللاستقلال التام. ولما وقع نظر السيدات على بعض الضباط الإنجليز أخرجت كل واحدة من تحت إزارها علما مصريا صغيرا وصحن بأعلى أصواتهن (لتحى مصر حرة. ليحى الاستقلال التام. ليحى الوفد المصرى. ليحى سعد باشا زغلول)».

فى ذات الشهر، وفى الكاتدرائية المرقسية أيضا، تحول العمل السياسى للمرأة المصرية من هبات غير منتظمة إلى طابع مؤسسى عندما أعلن عن تأليف «لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات» فى طليعتها: هدى

شعراوي، شريفة رياض، نعمت حجازي، إحسان أحمد واستر ويصا، ومهمتها: «مساعدة اللجنة المركزية للوفد المصرى لاستمرار المطالبة باستقلال مصر استقلالا تاما»، وعندما بلغ سعد زغلول الخبر، أبرق لرئيستها من العاصمة الفرنسية بهنئها بقيامها ويبلغها «إن العمل الذى أعلن فيه إرادتكن فى طلب الاستقلال يملأ نفوسنا افتخارا، فأنتن بذلك ترين العالم المتمدين كله أن أمهات أبنائنا ومربيات رجالنا الذين يقبضون غدا على أزمة شئون الوطن لهن جديرات بمهمتهن السامية».

ولم يقتصر عمل المرأة المؤسسى على «لجنة لوفد المركزية للسيدات» فحسب، بل إن تلك الفترة عرفت ظهور عديد من الجمعيات النسائية كان فى طليعتها «جمعية المرأة الجديدة» التى كتبت سكرتيرتها إلى «صاحب الأهرام» رسالة فى ٢٠ أبريل عام ١٩١٩ توضح فيها ظروف قيام هذه الجمعية وأهدافها، تلاها عدد من الجمعيات فيما بيناه فى الفصل السابق.

وحتى لا يبدو وكأن دور المرأة المصرية فى العمل السياسى مرهون بفورة الثورة الأولى، فقد ظلت لجنة الوفد المركزية للسيدات تقوم بدور سياسى بعدئذ مما سجلته الأهرام فى اكثر من مناسبة، كان منها الخطاب الذى وجهته إلى عدلى باشا، وهو يتأهب للسفر إلى لندن لمفاوضة اللورد كرزون، مطالبة إياه ألا يتساهل فى حقوق مصر «وأن تضعوا نصب أعينكم أن الأمة كتلة واحدة تؤيدكم وتناصركم وتشد أزركم .. فلا تنسوا دماء شهدائكم من شيوخ ورجال ونساء وأطفال».

ولم يملك سعد باشا سوى الاعتراف بهذا الدور فى أول خطبة ألقاها بعد عودته للبلاد فى ١٢ أبريل عام ١٩٢١ فقد استهلها بقوله: «أظهر السيدات فى النهضة الحاضرة من الشجاعة والإقدام ما أعجب به كل واحد منا وكل ناظر إلينا وكن فى كل موقف موضع إعجاب الجميع. وكن يملين

على الرجال من الثبات والاحترام ما رأينا آثاره الآن- لقد كتبن بأعمالهن المجيدة صحيفة من أجمل صحائف تاريخ النهضة الحاضرة، فلهن الشكر ولتصيحوا جميعا لتحى السيدة المصرية (فهتف لها الحاضرون) ».

ومن هذا الموضع الذى أمكن احتلاله أخذت النساء المصريات اللاتى نزلن إلى ميدان السياسة يراقبن عن كثب مجريات الأمور، حتى قرر عبدالخالق ثروت تشكيل لجنة لوضع الدستور فى مارس عام ١٩٢٢، وهى التى عرفت باسم لجنة الثلاثين أو لجنة الأشقياء»، ووجدت لجنة الوفد المركزية للسيدات نفسها فى مواجهة مع المصريين هذه المرة ..

* * *

فى بيان للجنة نشرته الأهرام يوم الجمعة ٢ يونيو من ذات العام، ووقعته إحسان أحمد، عبرت عن رأيها أن تلك اللجنة «خالفت إجماع الأمة وسارت فى طريقها غير مبالية بإرادتها فصح ما توقعناه من أنها ستسترشد بأعتق المبادئ وتبحث عن كل ما يقيد حرية الشعب» ..

السبب فى هذا الاتهام ما عرف عن قرارات اللجنة من ضآلة نسبة النواب إلى حد لا يفى بغرض التمثيل وأنها «أغفلت حق النساء فى الانتخاب مع أن الدساتير وقوانين الأمم الراقية التى قالت أنها تعمل مسترشدة بها أعطت لهن هذا الحق» !

وكأنما كان هذا الاحتجاج بمثابة إشارة البدء لمعركة مجهولة فى التاريخ المصرى الحديث .. معركة مطالبة المرأة بحقوقها فى الدخول فى «دار الإنابة» شأنها فى ذلك شأن الرجال، وهى المعركة التى بدأتها قارئة من الإسكندرية وقعت باسم «الآنسة منيرة ث»، وهى نفسها منيرة ثابت التى اكتسبت شهرة كبيرة بعدئذ كإحدى رائدات العمل الصحفى من المصريات، فقد أصدرت عام ١٩٢٦ مجلة «الأمل» التى وضعت برنامجا سياسيا

واقتصاديا واجتماعيا، وكانت من أولى المجلات النسائية التى تنحاز لمبادىء الوفد.

تحت عنوان «النساء والبرلمان المصرى» وفى عدد الأهرام الصادر يوم ١٠ يونيو كتبت الآنسة منيرة مقالا طويلا تكشف فيه عن نيتها بأنه ستعقبه مقالات أخرى، وقد استهلته ببداية ساخنة عندما طالبت كل محافظ «غضوب على كل حركة تقوم بها المرأة فى طريق تطورها الانسحاب من أمامنا، فما كنا نرجو من السادة الرجعيين تشجيعا ولا تعضيدا لمطالبنا» !

وتزداد السخونة بعدئذ عندما تتحدث عن الاستياء العام الذى قابل به الرأى العام تأليف لجنة الدستور، خاصة «ولم نجد بين أعضائها نساء يشتركن مع الرجال فى سن الدستور فى الوقت الذى رأيناها فيه قد ضمت بين أعضائها منصور يوسف باشا وصالح الموم باشا وأمثالهما ممن لا يجهل الخاص والعام مبلغ كفاءتهم ودرجة علمهم» !

وكان معلوما أن الآنسة الاسكندرانية تسخر من أمية هذين العضوين، وهو الأمر الذى لم تحتمله الأهرام، حتى أنها اضطرت أن تنوه فى آخر المقال أنها كانت تود من الكاتبة أن تتفادى مثل هذا القول «لأن الرجلين كبيران وهما موضع احترامنا» !

وبعد أن عددت صاحبتنا مثالب مشروع الدستور الذى وضعته اللجنة نزلت تأنيبا فى «الكتاب» الذين لم يراعوا فى نقدهم له غير ما لحق (الرجل المصرى) من حيف وما لحق بحقوقه من قيود «غاضين النظر عن افتئات اللجنة على حقوق المرأة المصرية .. أليس كان خليقا بجميع الكتاب أن يتناولوا بحث هذه النقطة والاعتراض على اللجنة لإهمالها؟» وتصل من ذلك إلى وجوب أن «نتقدم نحن أولا للمطالبة بحقوقنا هذه .. تلك الحقوق التى سوف أدافع عنها للنهاية» !

وخلصت منيرة ثابت فى نهاية مقالها الطويل إلى وضع برنامج للمرأة المصرية لمواجهة الموقف من مادتين:

الأولى: الاحتجاج بشدة عند الرأى العام على الوزارة ولجنة الدستور لافتئاتهما على حقوق المرأة المصرية «وأطالبهما بشدة، وفى كل لحظة بتخويلنا الحق فى عضوية مجلس النواب والشيوخ بلا تمييز بين المرأة والرجل. ولتعلما -الوزارة واللجنة- أننا مهما صادفنا من العقبات فلن ننثنى أبدا عن المطالبة بحقنا هذا الطبيعى».

الثانى: توجيه نداء إلى جميع النساء والسيدات المصريات «لمشاركتى فى المطالبة بحقوقنا فى عضوية البرلمان وفى الاحتجاج على من يحاولون هضمنا هذه الحقوق» !

الغريب أن أول من تصدى لصاحبة مقال «النساء والبرلمان المصرى» كانت آنسة مصرية أيضا، وإسمها منيرة كذلك، وإن اختلفت عن الأولى فى أن إسمها كاملا كان «منيرة كمال»، كما اختلفت عنها فى أنها عارضتها على طول الخط !

وصفت منيرة الثانية مبدأ التمثيل النسائى بأنه فاسد .. السبب: أن البلد فى شدة الاحتياج للرجال وهى فى حالة التكون «وإذا كان الحذر فى انتخاب اللائق من هؤلاء لتمثيل الأمة واجب فكم يكون الحذر أشد إذا خولت النساء حق الانتخاب والجلوس على مقاعد الرجال حتى ولو كانوا غير متعلمين. ألا ترى السيدة أن الطبيعة لم تسو بين الجنسين إذا صرفنا النظر عن الاستثناءات الفردية .. ولأنى من الجنس الآخر لا أشك فى أن رأيى لا يجد سبيلا إلى سوء الظن والمطاعن التى تكال جزافا فى هذه الأيام».

ولا تنسى منيرة كمال أن تؤكد لمنيرة ثابت فى نهاية مقالها أنها ليست

من الرجعيين المحافظين ممن أعلنت الثانية أنها لا تود مخاطبتهم، ولكنها لا تريد التورط «في تقليد أمم مضى على رقيها المدنى قرون عديدة، وليس فى طبائعهم ولا عوائدهم ولا دياناتهم من المحظورات ما فى بلدنا المسلم الشرقى والسلام» !

غير أن قارئا آخر وقع بأحرف إسمه الأولى(م.ف)، كان أشد قسوة على صاحبة مقال «النساء والبرلمان المصرى»، وردد بعض الآراء التى ظل خصوم المرأة يرددونها حتى اليوم، فهى ما خلقت «إلا لتكثير النوع الإنسانى فوظيفتها لا يستطيع أن يجاريها الرجل فيها وقد متعها الله تعالى لحسن أداء هذه الوظيفة بكل ما تحتاج إليه من الأعضاء وناسب بين تركيبها وتلك الوظيفة ..».

ويضيف القارىء المجهول أن العلم أثبت أن عقلية المرأة أقل من عقلية الرجل، ولا يرى بأسا فى هذه المناسبة من أن يستعين ببعض النصوص الدينية لتأييد دعواه، فيثبت نص الآية الكريمة بأن (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض)، ويخلص من كل ذلك إلى القول أن الله فضل الرجال على النساء «بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة».

ولا تفوت المناسبة أمير الظرفاء، الأستاذ فكرى أباظة المحامى، وكان بينه وبين «الجنس اللطيف» تار بايت ظل يعبر عنه فى كتاباته المختلفة، حتى أنه استهل مقاله الذى نشرته الأهرام فى ٢٠ يونيو عام ١٩٢٢ بعبارة تحذيرية وهى أن هذا الجنس برهن على أنه «لا يرحم إذا كتب ولا يشفق إذا خطب ولا يجامل إذا طلب» !

وكعادة كاتبنا الساخر فقد تساءل فى بداية حديثه عما يمنع السيدات والآنسات من (التصويت) خاصة وأنهن «يتمتعن بهذا الحق من بدء الخليقة للآن: فى الجنازات والمشاجّرات والعمليات وفى كل ما يستفز الشعور

بالنسبة لربات الخدور » !

يفترض بعد ذلك أن بعضهن دخلن بالفعل «دار الإنابة» ويقدم على ضوء هذا الافتراض مجموعة من الصور الهزلية ..

* أحد النواب الخشنين نظر أو «شخط» فى نائبة يدفعه فى ذلك الصالح العام إلا أنها «لرقة شعورها ودقة إحساسها ضجت بالبكاء والعويل من شدة التأثير وربما قذفت عليه من فيها مختلف الدعوات الصالحات متشفعة بالأولياء والأنبياء. ثم لا تلبث أن تنتابها حمى عصبية تشنجية فتحتاج (لدق الزار) فى رابعة النهار» !

* نائبة أخرى تركت أولادها لزوجها الوقور واشتغلت بحماس، على حد تعبيره، فى التقنين والتشريع «وبينما هى كذلك إذا بحاجب المجلس يخطرها بأن أطفالها يبكون لحاجتهم للرضاع- أتظن أنها تفضل التشريع على ابنها الرضيع أو سن القوانين على أولادها المساكين!؟».

ثم يتصور مجموعة القوانين التى سوف تتقدم بها النائبات دفاعا عن «الجنس اللطيف» .. منح الزوجات حق طلاق الأزواج، عند محاكمة إحداهن تكون أغلبية القضاة للجنس اللطيف، الزوج الذى يتغيب عن منزله دون سبب معقول «يكون مرتكبا جنحة الخيانة الزوجية ويقع تحت طائلة قانون العقوبات»، إذا أرادت زوجة ترك الزوج فيجب عليه أن يدفع تعويضات بسخاء «كما تفعل الحكومة المصرية لموظفى الأمة البريطانية»، ونظن أن «الضاحك الباكى» كان فى غاية القسوة على المرأة، خاصة وقد أثبتت الأيام بعد أن جلست تحت القبة أن كل ما تقوّل به كان مجرد هواجس لعدو آخر من أعدائها !

وبدلا من أن يفت ذلك فى عضد الآنسة الاسكندرانية، منيرة ثابت،

وتنسحب من الساحة بعد أن ثبت قوة خصومها، فإنها قررت أن تمضى فى معركتها قدما ..

* * *

مرة أخرى تحت نفس العنوان، وفى عدد الأهرام الصادر يوم السبت ٢٤ يونيو سنة ١٩٢٢، كتبت مقالها الثانى لتعلن أنها غير مبالية بما تلاقيه مصممة على مواصلة الجهاد لنصرة مبدأ «تحرير المرأة المصرية من كل القيود البالية والتقاليد العتيقة ومساواتها مع الرجل فى جميع الحقوق .. أجل صممت، أنا المسلمة الشرقية، على متابعة العمل للقضاء على تلك العادات وليدة الجهالة التى رزحت تحتها المرأة المصرية حينا من الدهر» !

خصصت بعد ذلك معظم مقالها للرد على سميتها، منيرة كمال، ووصفت آرائها وحججها بأنها واهية، غير أنها كانت منصفة حين قدمت اعتذارها عن أمرين جاءا فى مقالها، الأول: أنها لم تقصد الطعن فى الباشوات يوسف والملوم وإنما أرادت فقط القول للذين يتهمون المرأة بأنها ليست أهلا للجلوس فى دار الإنابة أنه «يوجد بيننا كثيرات ممن فى مستوى كفاءة من ذكرتهما وكثيرات أيضا يفقنهما»، ونعتقد أن صاحبتنا أخطأها التعبير فى ذلك، حتى أنه ينطبق عليها المثل العامى المشهور «جه يكحلها عماها» !

الاعتذار الثانى: عن مطالبتها بتحديد سن المرأة التى تخول حق انتخاب بثمانية عشر عاما فقط، فقد اعترفت أنها قد «تطرفت بعض التطرف» فى هذا «لذلك أرجع عن رأيى الأول وأوافق على تحديد السن بواحد وعشرين عاما كما هو شائع فى أغلب الدساتير».

على أى الأحوال، فقد انثنت من ذلك لتفند «النظرية الضارة» التى اعتمدت عليها «منيرة كمال» بأن أحكام العادات الشرقية تأصلت من آلاف السنين ويستحيل زوالها بسهولة، وأن تمكن مثل هذه النظرية من عقول

الكثيرين يؤدى إلى الخراب والدمار، وبعبارات نارية قدمت شرحا لما ذهبت إليه، فقد تساءلت «ما هى تلك العادات إن لم تكن الخمول والانكماش المتفشيين بين بعض المصريات؟ وحب السلامة والطمأنينة والخوف من الإقدام على الأعمال والتراجع أمام أية صغيرة قد تعكر صفو الراحة والهناء؟»، ثم انقلبت من ذلك لتضع يدها فى «عش الدبابير» عندما طعنت فى «الحجاب» باعتباره إحدى هذه العادات، والذى رأت أنه «بلىً فى مصر وتلاشى أثره وأصبح لا يرى من اسمه الضخم غير رمز للتهتك والخلاعة!! فأمسينا نؤثر عليه سفورا محتشما».

وكان أهم ما ذهبت إليه فى تفنيد «النظرية الضارة» ما ظل يروج له أصحابها من أن ما تطالب به معارض لأحكام الدين: «فما سمعنا قط أن الدين الإسلامى -ولا المسيحى- يحرم على المرأة مشاركة الرجل فى الأعمال على اختلاف أنواعها، وليس فى أحكام ديننا المحمدى ما يمنع المرأة من الوقوف بجانب الرجل بعد أن رأينا سالباتنا قد اقتحمن ميادين القتال بجانب الرجال بل ويزونهم فى كثير من الأعمال» !

وبنفس القوة رفضت الحجة التى ظل يرددها خصوم المرأة بأن الطبيعة لم تسو بين الجنسين واعتبرتها «دعوى باطلة وغريبة وإلا فإننى أتساءل كيف سوت بين الجنسين فى أوربا فأصبحت المرأة شريكة للرجل -شركة الند للند- وأتت كثيرا من الأعمال الجليلة؟ بل ما هو الفارق بين المرأة الشرقية وأختها الغربية التى لم تمثل فقط فى البرلمانات بل دخلت المحاكم وأغلب دور الحكومة؟!».

وفى ٣ يوليو نشرت الأهرام لمنيرة ثابت مقالها الثالث ترد فيه هذه المرة على الكاتب الذى آثر التوقيع بأحرف إسمه الأولى، م.ف، ورأت أنه بنى اعتراضه على حجتين: أولاهما: مسألة تحديد سن العضوة بثمانية عشر عاما، والثانية: أن المرأة غير أهل لذلك «لانتقاص فى عقليتها ولأن

تركيبها الخلقى لا يسمح بذلك». وأن الحجة الأولى قد سقطت بعد أن تراجعت عن هذا الرأى، غير أنها لم تقبل بالحجة الثانية، وعادت هنا لتردد ما سبق لها قوله من أن المرأة المصرية لا تقل عن قرينتها الأوربية «التى أتت من الأعمال ما عجز عن إتيانه بعض الرجال»، وتسخر منه عندما تذكره بقول الخديوى إسماعيل المشهور بأن مصر جزء من أوربا، وكيف أن المحافظين يريدون بعد مضى أكثر من نصف قرن على هذا القول «أن نتغلغل فى مجاهل إفريقيا فنكون جزءا من خط الاستواء .. أليس من العجب العجاب أن نرى (بعضا) من المصريين -أولئك الذين يقتبسون قوانينهم ومدنيتهم من قوانين أوروبا ويتتبعون خطواتها على درجة الرقى- لا (يخجلون) من الوقوف فى وجه المرأة حائلين بينها وبين مشاركتهم فى هذا الاقتباس والاقتداء» !

ويبدو أن ثبات منيرة ثابت على موقفها قد دعا آخرين إلى اتخاذ صفها، وإن حدث ذلك بقدر من التردد من البعض أو بشكل غير مباشر من البعض الآخر ..

يندرج فى صف الأولين «إسماعيل وهبى المحامى بمصر» الذى اعترف بوجاهة كل الحجج التى أدلت بها «الآنسة المدافعة عن حقوق المرأة»، وكان هذا الاعتراف فى حد ذاته نصرا لصاحبتنا، غير أنه رأى مع ذلك أن كل ما تفعله «صرخة فى واد»، والسبب: أن الوقت لم يحن بعد لهذه الخطوة، وأن مسألة انتخاب السيدات «هى الشغل الشاغل فى الدساتير الأوربية، ومازال الكثيرون يرفضون تمثيل السيدات فى البرلمان. إن أوروبا التى بلغ فيها مكان المرأة كمكان الرجل من أجيال متعددة لم تفكر فى انتخاب السيدات إلا فى القرن الأخير .. أننى لا أقول بحرمان السيدة المصرية من حق الانتخاب فى الزمن المستقبل غير أننى أؤكد للآنسة الفاضلة أن هذه المسألة سابقة لأوانها».

من الآخرين «سلامة موسى» المفكر المصرى المرموق الذى نصح بإتباع سياسة «الخطوة خطوة» فى هذا الشأن، خاصة وقد أزعجه بعض الآراء التى أعرب عنها عدد من أعضاء اللجنة من الوجه القبلى بضرر تعليم البنات وأن الأفضل ترك المصريات ينشأن زوجات وأمهات جاهلات، وأنه ينبغى أولا محاربة هذه الأفكار والتنبه إلى هؤلاء الذين «لا يدركون للآن قيمة تربية المرأة».

منهم أيضا أنطون زكرى أمين المتحف المصرى الذى استخدم معرفته بالتاريخ المصرى القديم للدفاع عن المرأة، وكيف أنها كانت عند الشعوب القديمة «مستعبدة ذليلة وكانت المرأة المصرية وحدها حرة محترمة متمتعة بكثير من الحقوق الاجتماعية حتى كانت تتزوج بمحض إرادتها وتتعلم العلوم التى تجعلها كفئا للرجل».

ويبدو أن منيرة ثابت قد اقتنعت فى النهاية بوجوب الانتظار حين أغلقت المناقشة فى الموضوع بشكر وجهته للأهرام بأنها «لاتزال منبر الوحى بكل ما هو مفيد وآخرها وجوب تمثيل النساء فى دار الإنابة»، وكان على مصر أن تنتظر نحو ثلث قرن لتدخل المرأة هذه الدار، ولا ندرى ما إذا كانت صاحبة الحملة التى نعلم أنها كانت تناهز الخامسة والعشرين عندما شنتها، قد عاشت لتشهد حلمها يتحقق أم لا.

الفصل الثانى عشر

فى المؤتمر النسائى الدولى

هدى شعراوى، نبوية موسى، سيزا نبراوى، ثلاثة من أقطاب العمل النسائى فى مصر، غادرن الإسكندرية صباح يوم الجمعة ٤ مايو عام ١٩٢٣ على الباخرة حلوان، متوجهات إلى العاصمة الإيطالية ليمثلن بلادهن فى المؤتمر النسائى الدولى، وكانت المرة الأولى التى تشارك فيها مصر فى ذلك المؤتمر، رغم أنه قد سبق له أن اجتمع ثمانى دورات.

ولا يغيب عن فطنة القارئ أن سفر الوفد المصرى إلى مثل هذا المؤتمر جاء كإحدى نتائج المشاركة النسائية الفاعلة فى أحداث ثورة ١٩١٩، خاصة وأن السيدة هدى شعراوى كانت رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات، وإن كانت قد قصدت المؤتمر بصفتها رئيسة «الاتحاد النسائى المصرى»، الذى كانت قد شكلته فى نفس العام.

وبامتداد الشهرين السابقين على المؤتمر تابع قراء الصحف المناقشات المحمومة حول صواب هذا التصرف النسائى، ومع أن أغلب الآراء كانت فى صالح سفر هدى شعراوى ورفيقاتها، غير أنها قد تضاربت فى الدور الذى يفترض أن تقمن به، خاصة وأن جدول الأعمال المطروح قد اكتنفه كثير من القضايا التى لا تناسب المرأة المصرية.

وكان من الطبيعى أن تعنى الأهرام بأخبار ذلك الاشتراك، وأن تخصص صفحاتها لشتى الآراء كما هى عادتها فى تلك المناسبات، الأمر الذى يمكن أن نتابعه فى جريدتنا لنحو ثلاثة أشهر .. من أوائل مارس وحتى نهاية مايو عام ١٩٢٣ .

أول تلك الأخبار نشرته جريدتنا يوم الجمعة ٢ مارس، وعلى غير عادتها لم تتحر فيه الدقة.. فقد جاء فيه أن السيدة هدى شعراوى (وإبنتها) ستنوبان عن النساء المصريات فى المؤتمر، وهو ما لم يكن صحيحا، وأن هذا

المؤتمر ينعقد «للنساء المطالبات بالانتخاب»، وهو ما لم يكن صحيحا أيضا!

وقبل تبين الصحيح من الخطأ اندفع قارىء إسمه سليم يوسف مرحبا ومتسائلا فى ذات الوقت: «هل بعد ذلك من مطمع أن يقوم نفر منا محب لأمته يدافع عن سمعة البلاد فى الخارج ويلفت نظر أوروبا بل العالم أجمع إلى قديم مدنيتنا وحضارتنا وما قامت به المرأة المصرية أخيرا من جليل الأعمال وما أظهرته من وطنية عالية ونفوس أبية»(!)، ولا ينسى صاحبنا أن يعرب فى هذه المناسبة عن إعجابه البالغ بالسيدة هدى ويصفها بأنها «وطنية حازمة وسياسية محنكة بأوسع معانى الكلمة غيورة على مصالح البلاد»، ويبدو أن دافع الرجل لهذا الموقف المتعجل كان إعجابه بزعيمة الحركة النسائية المصرية أكثر من فهمه لطبيعة المؤتمر.

فى منزل هدى شعراوى الواقع فى شارع قصر النيل رقم ٢، وفى الساعة الخامسة من مساء يوم الجمعة ١٦ مارس تشكلت لجنة دائمة من السيدات، بلغ عدد أعضائها أربعة وعشرين ذكرت الأهرام أسماءهن بالكامل، حيث انتخبن خمس منهن لتمثيل مصر فى المؤتمر على رأسهن صاحبة المنزل بالطبع، ومعها كل من نبوية موسى واستر فهمى ووجيدة خلوصى وسيزا نبراوى، ولأول مرة يعرف المصريون شيئا عن جدول أعمال المؤتمر الدولى .. المساواة بين الرجال والنساء فى العمل، الوحدة الأخلاقية والمساواة فى التعليم، جنسية المرأة المتزوجة واستقلالها عن زوجها أو تبعيتها له، مركز المرأة الاقتصادى، الطفل غير الشرعى، وأخيرا المرأة والأحزاب السياسية.

وبدا وكأن الأمور تسير على ما يرام وأن الجمعية المصرية النسائية التى انعقدت فى دار رئيستها بصدد الاستعداد للمشاركة فى المؤتمر، حتى طلعت علينا الصبية المشاكسة إبنة الإسكندرية، منيرة ثابت، بمقال طويل فى

الأهرام قلبت به الموائد على رؤوس المجتمعات فى شارع قصر النيل.

عنوان المقال الذى نشرته الأهرام لمنيرة كان يكشف عن نيتها .. «حول المؤتمر النسائى الدولى- مقدمة حساب وعتاب -١-»، وتعترف من أول سطوره أنها غاضبة فإن هذا المؤتمر هو التاسع من نوعه «فأين كانت المصريات حين عقد هذا الاتحاد مؤتمراته الثمانية الماضية؟ ماذا كانت تعمل (زعيماتنا الكبيرات) فى هذه التسع السنوات الماضية»، وأردفت ذلك بسؤال آخر عن أسباب تقصير السيدات المصريات لاسيما من تولين منهن الزعامة «فى السعى لحضور بعض من هذه المؤتمرات»، ولم يغب عن القارىء بالطبع أن منيرة ثابت تلمح لهدى شعراوى !

السبب أفصحت عنه فى نفس المقال: أنها لم تحظ بالتأييد المتوقع من هؤلاء الزعيمات فى حملتها التى كانت قد قامت بها قبل شهور لتدفع لجنة الدستور بإقرار حقوق المرأة فى الترشيح والانتخاب ، وكان نصيبها، على حد تعبيرها «ضجة سخط واستنكار من الرجال، وكذلك من بعض النساء .. ولشد ما كان يؤلمنى أن أرى من النساء من يقمن أمامى معترضات صارخات فى وجهى مستنكرات» !

كشفت أيضا عن مرارتها أنها لم تحضر اجتماع شارع قصر النيل لأنها لم تُدعى إليه، ولذلك قررت أن تضع نفسها، على حد قولها، فى موضع الرقيبة «فأناقش قرارات اللجنة وأرقب عن كثب أعمال وفدها».

لم يتأخر رد الزعيمات طويلا، إذ نشرت الأهرام بعد أقل من أسبوع مقالا لنبوية موسى، وهى وإن حاولت أن تهون فيه من شأن منيرة ثابت، فوصفتها فى موقع «بالأخت الصغيرة» وذكرت فى موقع آخر أن سبب عدم دعوتها لحضور اللجنة هو صغر سنها، لكنها لم تستطع أن تنكر وقع المقال، الأمر الذى بدا فى ردها المطول..

فقد أنكرت المربية المشهورة على «الأخت الصغيرة» تصورها أن المؤتمر منعقد لمجرد بحث حق المرأة فى الانتخاب وإنما للنظر «فى شؤون المرأة جميعها لتنال قسطها من التعليم الصحيح وتفهم الحياة العملية بكل معانيها»، وقد أعطت لهذا الغرض أسبقية عن موضوع حق الانتخاب الذى اعتبرت منيرة نفسها الداعية الأولى لنيله، وبَنت رأيها فى ذلك على اعتقادها أن البرلمان المصرى القادم سيكون صوريا «يجلس فيه رجالنا وليس لديهم فى أمورنا الحيوية المفيدة من حل ولا عقد» !

ويتأكد أن مقال نبوية موسى جاء بإيعاز من هدى شعراوى، أو على الأقل بموافقتها، مما ذكرته أن الأخيرة تنظر إلى منيرة «كما تنظر الأم العاقلة الرزينة إلى ابنها الصغير وقد قام وقعد وأرغى وأزبد»(!)، وهى وإن كانت فرحة بكتاباتها غير أنها لم تذهب لمساعدتها بشأن حملتها لحصول المرأة على حق الانتخاب والترشيح فى البرلمان الجديد «لأنه يستحيل تطبيقه الآن وقد كانت حفظها الله تهتم بما هو أهم منه من نشر التعليم الصحيح بين الفتيات وهو أول خطوة تؤهلهم للانتخاب فى البرلمان».

وفى محاولة من نبوية موسى لتبين لمنيرة ثابت حجمها بالقياس لهدى شعراوى أخذت تذكرها بأن الأخيرة هى التى ألفت جمعية مبرة محمد على وكونت جمعية المرأة الجديدة ومدت يدها لجمعية ترقية الفتاة المصرية، كل هذا فضلا عن دورها الوطنى الذى يعرفه الجميع، غير أنها دعتها فى نهاية المقال لحضور الاجتماع التالى وأن تعتبر ذلك دعوة خاصة لها.

لم تسكت الفتاة المشاكسة على المربية الفاضلة فردت فى مقال آخر انتهت فيه إلى الاحتجاج على معاملتها معاملة الصغار ورفضها لما شاب أقوال نبوية موسى من التوبيخ كأنها إحدى تلميذاتها، وحرصت طول الوقت على التأكيد على تمسكها بدعوتها لدخول المرأة المصرية البرلمان مما نتبينه فى

إصرارها على التوقيع بإسمها ملحقا به وصف لنفسها بأنها .. «المطالبة بحق الانتخاب» (!)

غير أنه مع اقتراب رحيل الوفد إلى روما اتخذت المناقشات منحى آخر..

* * *

فى عدد الأهرام الصادر يوم الخميس ٢٩ مارس كتبت قارئة من المنصورة إسمها «حسنة محمود نجم الدين» ما أسمته «فحصا لبنود المؤتمر» التى اختارت منها ثلاثة..

«جنسية المرأة المتزوجة واستقلالها عن زوجها وتبعيتها له» وقد رأت أنها مسألة «فيها نظر»، السبب: أن الحياة الزوجية عمل قائم بذاته لو تفرغت إليه المرأة بإخلاص لما وجدت وقتا لمزاولة عمل آخر، وإن كانت قد استثنت من ذلك المرأة الفقيرة «التى تعمل لتساعد زوجها على معاشه فهى أشرف النساء وأنبلهن، والمرأة المتعلمة التى تتطوع لتعليم بعض الأطفال الفقراء، فهى أجدر النساء بالأمومة .. أما المرأة التى تريد أن تستقل عن زوجها فى العمل قصد الكسب وضنا بنفسها عن المتاعب المنزلية فهى خطر على كيان الأسرة تجب مكافحته وعدم تشجيعه، وكان خير لها وأولى أن لا تقدم على الزواج» !

«مركز المرأة الاقتصادى» كان البند الثانى من البنود التى تناولتها السيدة «حسنة» وقد رأت أن المرأة المصرية فى «الدرك الأسفل» فيما يتعلق بهذا المركز .. السبب: أنها «لم تستفد من المدنية الغربية إلا التأنق والتبرج وبذل كل ما يصل إلى يدها فى تلك الهاوية السحيقة .. هاوية الأزياء»، وأنها على الجانب الآخر تكثر من الخدم فى المنزل «بما لا يتفق مع حالته الاقتصادية»، وهى على الجانب الأخير، «ناقصة الدراية بالشؤون المالية

فهى عرضة فى كل وقت لتلاعب من تطمعه ثروتها إن كان لها ثروة أو غبنها فى أجرها إن كانت عاملة».

البند الثالث عن «الطفل غير الشرعى»، وقد عبرت أصدق تعبير عن رأى المجتمع المصرى فى ذلك بقولها أن المرأة التى تلده «لا تستحق الرحمة وليس من الشرف أن ننصفها بإنصاف ابنها»، وقد اعترفت بقسوتها حيال مثل هذا الطفل حين حكمت عليه بأن يكون ضحية لخطأ أمه، غير أنها بررت ذلك بأن إنصافه يكون «بمثابة تحريض للمرأة أن تتهاون فى عرضها ثم يكون تلاعبا معيبا بالدين»، وطالبت الوفد المصرى فى المؤتمر ألا يعير هذه القضية اهتماما !

البند الأخير خاص «بالمرأة والأحزاب السياسية»، وقد انحازت هنا للرأى الذى كان قد سبق وأبدته نبوية موسى بوجوب إصلاح التعليم وتعميمه، وبعد ذلك تستطيع المرأة أن تقوم بكل عمل يعهد إليها «وإذا سلمنا ووجدنا المرأة التى تجلس فى البرلمان هل نجد فى القرى المصرية أو فى البنادر من تفهم معنى الانتخاب من سيداتنا الجاهلات؟».

وفى تلك الأثناء كانت اللجنة تسير قدما فى الإعداد للخطوات النهائية لسفر الوفد، وهو ما كشفت عنه الأهرام فى عددها الصادر يوم الجمعة ٤ مايو فى تقرير تحت عنوان «وفد النساء المصرى فى عاصمة الطليان»..

أول ملاحظة أنه قد تقرر أن يقتصر الوفد على ثلاثة أعضاء بعد استبعاد استر فهمى ووجيدة خلوصى اللتين اعتذرتا فى الغالب..

* «صاحبة العصمة السيدة الجليلة هدى شعراوى»، وهى غنية عن التعريف كما يقال، ففضلا عن عراقتها الأسرية، ابنة سلطان باشا وزوجة على شعراوى باشا، بدأت نشاطها الاجتماعى منذ عام ١٩٠٩، وأسست

عددا من الجمعيات، ولعبت دورا قياديا فى الحركة السياسية للمرأة المصرية إبان ثورة ١٩١٩ .

* نبوية موسى والتى ارتبط إسمها بدورها التربوى .. فهى بعد أن تخرجت من مدرسة السنية كانت أول فتاة مصرية تحصل على «البكالوريا» ثم اشتغلت بالتعليم، وكانت من المصريات الأوائل اللاتى تولين مناصب قيادية فى هذا الميدان، بعد أن كانت تلك المناصب حكرا على المعلمات الإنجليزيات.

* سيزا نبراوى والتى عاشت فى فرنسا لنحو عشر سنوات من صباها المبكر مما أكسبها روحا ليبرالية، هذا من جانب واحتكاكا قويا بالثقافات الغربية من جانب آخر، وكانت من أولى المشاركات فى تأسيس الاتحاد النسائى المصرى الذى أعد للرحلة.

الملاحظة الثانية: متصلة بالبرنامج، فقد استجاب أعضاء الوفد النسائى المصرى أن يكون له برنامج يتفق مع خصوصية أوضاع المرأة فى بلادهم، وألا ينساقوا وراء البرنامج الموضوع للمؤتمر الذى تعرض لهجوم من عديدين لأنه «غريب عن عاداتنا وتقاليدنا»..

ترقية مدارك المرأة العقلية والأدبية كانت أولى نقاط ذلك البرنامج، الثانية: المطالبة بمساواة النساء بالرجال فى التعليم العالى لمن أرادت، الثالثة: تنظيم أسلوب الخطبة بحيث يكون كل من الزوجين على علم تام بالآخر قبل العقد، الرابعة: السعى لإصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وجعلها منطبقة على ما أرادته روح الدين،الخامسة: المطالبة بسن قانون يمنع زواج البنت قبل بلوغها السادسة عشرة، السادسة: السعى بمختلف الوسائل لتحسين حالة الشعب الصحية، السابعة: محاربة البدع والخرافات، الأخيرة: السعى لتأييد الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

ولأول وهلة نرى أن هذا البرنامج قد اتسم بالتعميم الشديد وبالإغراق فى الخصوصية إلى حد كان يصعب معه الإجهار به فى المؤتمر، وهو ما نستنتجه

من بيان الجمعية الذى أصدرته بمناسبة رحيل الوفد وجاء فيه بأن «أكبر غرض لسفره هو العمل على محو الفكرة السائدة فى أوروبا من أن المرأة المصرية لاتزال تائهة فى مجاهل الخمول بعيدة عن الحياة العملية لا مجال لها إلا فى داخل منزلها ولا عمل لها فى الشئون العامة».

البرنامج الحقيقى كشفت عنه عضوات الوفد فى أعقاب وصولهن للأراضى الإيطالية وأنه جاء طى مذكرتين؛ أولاهما: تضمنت ما يهم مصر ذكره من المباحث النسائية، والثانية: تبحث فى حال المرأة المصرية من عهد محمد على باشا وما كان للمرأة العربية قبل ذلك من المكانة فى الهيئة الاجتماعية.

وبدأ الوفد رحلته يوم الجمعة ٤ مايو، وتقول نبوية موسى فى تقرير بعثت به للأهرام أنهن لقين الترحيب فى كل مكان .. على ظهر السفينة التى رفعت العلم المصرى تحية لهن، وفى برنديزى حيث وجدن فى استقبالهن عددا من الطلبة المصريين يلقون الأناشيد الوطنية، ثم إلى مقر المؤتمر فى انتظار بدء وقائعه..

غير أن الأهرام ألمحت فى مقال لها أن ثمة مشكلة تواجه السيدات الثلاث، فقد كن يفكرن «فى تغيير نظام ملابسهن حتى لا يكون الزى الخاص سببا للفت الأنظار إليهن فى كل مكان»، إلا أن هذا التلميح الذى لم تشر إليه جريدتنا مرة أخرى تحول إلى قضية هامة من قضايا الوفد عقد حولها الدكتور جابر عصفور دراسة ممتعة لصحيفة البيان الخليجية.

فى رأى الدكتور جابر أن السيدة المصرية لم تخلع حجابها بمعنى غطاء الوجه خلال ثورة ١٩١٩، وأن المرة الأولى التى خلعت فيها هذا الحجاب كانت بالمبادرة التى قامت بها عضوات الوفد الثلاث، وأنهن لم يلبسنه مرة أخرى بعد عودتهن إلى البلاد مما حدا بأخريات بالحذو حذوهن !

* * *

لا نجد أفضل من التقرير الذى بعثت به «الست نبوية موسى» والذى

نشرته الأهرام يوم ٢٥ مايو عام ١٩٢٣ وصفا لنشاطات الوفد النسائى المصرى فى العاصمة الإيطالية ..

قالت: «إن الوفد وصل إلى روما يوم الاثنين ٧ مايو فذهب توا إلى محل المؤتمر فوجده فى بناء فخم أعدته الحكومة لعرض ما يصنعه نوابغ الفن من نقش وحفر، وقد أعد الطابق السفلى منه للمؤتمر ووجدنا هناك كثيرا من نساء الدول وعرفنا أنه حضر للمؤتمر وفود من أربعين أمة وقد أظهرت النساء دهشة عندما عرفن أننا مصريات لأن اعتقادهن فى المصريات كان غير ما رأينه وكن يعتقدن أن الوفد المصرى أحط من الوفد الهندى الذى حضر إلى المؤتمر فى السنة الماضية ولم يظهر له رأى فى الأمور المعروضة».

وحدث وقت افتتاح المؤتمر أن لفت العلم المصرى نظر رئيسته، وهو العلم الذى ارتبط بثورة ١٩١٩ .. هلال يتوسطه صليب، فوقفت تتأمله وسألت عضوات الوفد عما إذا كان علما جديدا فأجابتها هدى شعراوى أنه «علمنا الوطنى»، وتقول الأخيرة أن مسز شابمان كارت، وهو إسم رئيسة المؤتمر «أكبرت عاطفة الألفة السائدة فى مصر ويظهر أنهم كانوا يعتقدون فينا التعصب الدينى بدليل أن إحدى السيدات هناك عندما أرادت محادثة وفدنا كان أول سؤال وجهته ما هو القبطى والمسلم فى مصر فأجيبت بأن القبطى يدين بالمسيحية والمسلم بالإسلام كل حر فيما يعتقد ولكن الكل يدين بالوطنية الخالصة».

حسب ما جاء فى نفس التقرير أن المؤتمر بدأ فعالياته يوم السبت ١٢ مايو حين شكّل الاتحاد أربع لجان فاختار الوفد المصرى أن يدخل اللجنة التى تبحث فى مركز المرأة الاقتصادى «وهنا أظهر الوفد كفاءته فما أشار على اللجنة بإصلاح إلا واتبعته».

من مظاهر هذه الكفاءة، فى رأى نبوية موسى، المذكرة التى تم تقديمها بإسم الوفد والتى جاء فيها أنه «قبل أن تطالب المرأة بحقوقها السياسية يجب أن نحسن حالتها الاقتصادية لكى تستطيع أن تعيش عيشة استقلالية

فتكون لها فكرة خاصة فى الشؤون السياسية. ولذا فمقصدنا الأول هو السماح للمرأة المصرية بتحسين حالتها الاقتصادية وذلك بأن يكون لها الحق أن تتعلم كالرجل».

ومن هذا المنطلق أعطى الوفد المصرى أقصى اهتماماته لقضية تعليم المرأة حيث وزعت «المربية الفاضلة» مذكرة مسهبة على الوفود تشرح فيها العراقيل التى تبثها السلطات فى مصر فى وجه تعليم المرأة، وقد اتهمت الإنجليز أنهم وراء ذلك، وتقول نبوية موسى أنها وزعت هذا «على كبيرات أعضاء المؤتمر وربما كان لم يحل من نفوس الجميع محل الرضا إذ لم يكن يسعنى أن لا أشير إلى العقبات التى أقامتها الحكومة الإنكليزية فى سبيل ترقية تعليم النساء فى مصر ولكننى مقتنعة بأن العنصر الأنجلو-سكسونى الكثير فى المؤتمر لا بد من أن يدفعه حسن النية وبعد النظر إلى الاعتراف بأنه مبنى على الحق والصواب».

وفى اليوم التالى عقد الاتحاد «اللجنة الدولية» فشارك فيها الوفد أيضا، ومرة أخرى تقول الناطقة بلسانه أنها وزميلتيها دخلن فى جدل عنيف حول الاقتراح الذى طرح على هذه اللجنة بمنع الجمعيات التى تشتغل بالسياسة فى بلادها من الانضمام إلى الاتحاد، فقد اعترض الوفد المصرى عليه، وكان رأيه أن «الاشتغال بالسياسة وطنية، والوطنية ليست ذنبا أو عيبا من العيوب التى يحرم لأجلها كل شخص من الانضمام إلى أية جمعية كانت بل هى فضيلة من أمهات الفضائل .. وإذا طبقت هذه المادة كان من شأنها أن تقضى على جميع أعضاء الاتحاد بالخروج منهن لوطنيتهن».

ولا ندرى مدى دقة ما ذكرته نبوية موسى على رد فعل «عضوات اللجنة الدولية» من الموقف المصرى، إذ تقول أنهن وافقن على هذه النظرية «واحترمن للوفد المصرى جرأته هذه وكبر شأنه فى عين رئيسة الاتحاد»، حتى أنها خصصت فى كلمتها فى اليوم التالى فقرة للمصريات الثلاث كان مما جاء فيها: «إننا نرحب خاصة بالوفد الآتى من مصر، تلك الأرض العجيبة التى أخرجت قديما ملكات وقائدات جيوش طائرات الصيت فلا

عجب إذا كان فيها الآن أبطال يرفعن لواء الحرية والمساواة فى الأمور المدنية والسياسية لنساء مصر الجديدة. فلله ما أشجعكن يا نساء مصر».

وبحكم ما لبلاد الفراعنة من وزن حضارى فقد لقيت المصريات الثلاث اهتماما صحفيا واسعا ..

«الإيبوكا» وهى جريدة إيطالية واسعة التوزيع نشرت حديثا للسيدة هدى شعراوى عن حالة المرأة المصرية أثار الاهتمام، وتضيف الصحيفة أن النظرية التى عرضها الوفد المصرى نالت الموافقة العامة لاعتدالها «فهى لا تطلب المساواة بين المرأة والرجل دفعة واحدة بل الوصول إلى الغرض المنشود بكيفية تدريجية حكيمة».

كما التقت عضوات الوفد مع إحدى الصحفيات الأمريكيات وجرى بينهن حديث طويل أبدت فيه الأخيرة إعجابها بأن المصريين القدماء «كانوا أول من نبغ فى النقش والحفر»، خاصة وقد كان من بين المعروضات فى دار المؤتمر لوحة للفنان يوسف كامل الذى كان مبعوثا من الحكومة المصرية فى روما وقتئذ.

بعد ظهر يوم الاثنين ٢٨ مايو عام ١٩٢٣ وصلت كل من هدى شعراوى وسيزا نبراوى إلى مياه الإسكندرية، وكانت قد سبقتهما إليها الأستاذة نبوية موسى لتعد لهم الاستقبال اللائق، وهو ما نوه به مندوب الأهرام فى الثغر والذى كان من ضمن المستقبلين الذى طير برقية للصحيفة فى القاهرة يخبرها فيها أنه كان فى انتظار السيدة الجليلة على رصيف الميناء محمود سامى باشا صهرها، وإبراهيم الهلباوى بك وكريمته، كما استقبلتهما «الست نبوية موسى وتلميذات مدرستها».

وقد كتب أحد قراء الأهرام فى هذه المناسبة يحمد لهدى شعراوى وزميلتيها القيام بهذه الخطوة الجريئة وأنهى كلمته بالدعاء أن «يكفى الله مصر شر مرضى المكابرة ومرضى الجمود الفكرى وآفة كل إصلاح»، وهو ما نبتهل به إلى الله حتى يومنا هذا.

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٧٠٣ / ٢٠٠٢

I.S.B.N 977 - 01 - 8128 -5



لقد أدركنا منذ البداية
أن تكوين ثقافة المجتمع
تبدأ بتأصيل عادة
القراءة، وحب المعرفة، وأن
المعرفة وسيلتها الأساسية
هى الكتاب، وأن الحق في
القراءة يماثل تماماً الحق
فى التعليم والحق فى
الصحة.. بل الحق فى
الحياة نفسها.

سوزان مبارك

مهرجان القراءة للجميع
للطفل.. للشباب.. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ١٥٠ قرشاً